مجموعة قصص
للأطفال

تأليف

محمد سعيد المولوي

obeikandl.com

obeikandl.com

الساق الخشبية

قعد أبو هانئ أمام غرفته في بستانه، وقد أنهكه التعب، والعرق يتفصد من جبينه، والألم يهاجم رجله، ومد يده إلى رجله فنزع أربطة الساق الخشبية ليريحَ رجله من أثر احتكاكها بالخشب، ثم أسند الساق الخشبية إلى الحائط وراح ينظر إليها، وطافت به الذكريات، وعاد بخياله إلى يوم أن كان يتمتع برجلين سليمتين يمشي بهما، ويقفز، ويركض، ويتسلق السلالم، ويجتاز السواقي، ويخوض الأنهار. ويركب دراجته ويذهب إلى وظيفته البسيطة ويعود ظهراً وقد ملأ صندوق دراجته الذي ربطه وراءه بشتى أنواع الخضراوات والأطعمة والحاجيات.

لقد كان أبو هاني يعيش سعيداً هانئاً قانعاً من حياته بهذه الوظيفة البسيطة والتي لم يكن يلزمه أكثر من ثلث ساعة على دراجته حتى يصل إليها منطلقاً من بستانه. إذ كان يغدو إليها صباحاً باكراً ويعود ظهراً فيتناول غداءه ويرقد قليلاً ثم يقوم إلى بستانه يعمل فيه فيسقي أشجاره ويروي نباتاته وأزهاره ويقلّم أغصان أشجاره، ويقلب تربته، وينكش حول جذور أشجاره، ويزيل ما فيه من أعشاب طفيلية حتى غدا بستانه جنة مثمرة حاز على إعجاب جيرانه وفاق بساتين غيره حسناً وجمالاً وكثرة وجودة إنتاج وأعطاه دخلاً حسناً إذا أضيف إلى ما كان يناله من وظيفته فإن المجموع كان يهيئ له مستوى لائقاً من الحياة.

وكان إذا جاء المساء جلس أمام مزروعاته وقد صنع إبريقاً من الشاي الأخضر، وكثيراً ما كان جيرانه يزورونه ويتسامرون وإياه ويشربون من شايه الطيب، ويأكلون من ثمار بستانه، فإذا حان وقت صلاة العشاء أرادوا الصلاة ثم انطلقوا إلى بيوتهم وبساتينهم وأوى أبو هاني إلى فراشه.

هكذا كانت حياة أبي هاني، حياة مستقرة هادئة مفعمة بالسعادة والسرور والطمأنينة، ولكن كان يشغل باله أمر واحد، وهو أن يستطيع توفير المال اللازم كي يتزوج امرأة تشاركه أفراحه وأحزانه، وأن تكون تقية صالحة وربة بيت ماهرة، تنجب له الأولاد وتسعده في حياته البسيطة هذه.

لكن أمراً واحداً غيّر مجرى حياة أبي هانئ، وبدلها، وقلب خيالاته وطموحاته. فقد كانت سورية ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي، وكانت نار الثورة السورية ضد الفرنسيين قد بدأت تنتشر في أرجاء غوطة دمشق، وبدأ المجاهدون يلتحقون بصفوف الثّوار، والثورة تشتد يوماً بعد يوم.

كان أبو هانئ مغتاظاً من وجود الفرنسيين في بلاده، ويتمنى خروجهم منها، لكنه لم يفكر يوماً أن يلتحق بالثوار حتى كان يوم جمعة، جلس فيه أبو هانئ يستمع إلى خطبة الجمعة، وكان الخطيب شيخاً مهيباً جريئاً وقد جعل خطبته عن الوجود الفرنسي، إذ استنكره ودعا المعلمين إلى تأييد الثورة السورية بالمال والسلاح والالتحاق بصفوف المجاهدين الثوار، وأفتى أن الجهاد الآن فرض عين على كل

مسلم ولا يحق لأحد أن يتأخر عن الانضمام إلى الثورة وجهاد الفرنسيين، وأن من تقاعس فهو آثم، وأورد قصة الصحابة الثلاثة المخلفين عن غزوة تبوك أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، وحذر مَن يتخلف اليوم عن الالتحاق بالمجاهدين أن يكون من المخلفين الآثمين.

خرج أبو هانئ من المسجد بعد الصلاة ساهماً، وهو يفكر في كلام الشيخ، فالأمر لا يحتمل التأخير ولا التباطؤ، وحين وصل داره في بستانه اضطجع على سريره يريد أن ينال قسطاً من الراحة ولكنه لم يستطع النوم فقد كانت كل كلمة من خطبة الشيخ ترن في أذنيه وتدعوه إلى هجر حياة؟؟؟ والالتحاق بالمجاهدين، وظل أبو هانئ في قلق واضطراب يعيش بين فكرتين تتجاذبانه إحداهما تشده إلى الأرض والبقاء على ما هو عليه وثانيتهما تدعوه للانطلاق في آفاق الجهاد وأداء الواجب والبحث عن الشهادة والانسلاخ من المادة. وهكذا بين جذب وانعتاق واضطراب أطل المساء على أبي هانئ وقد قرر أن يلتحق بالثوار. وأحس أبو هانئ بالراحة وهدوء النفس وحين أوى إلى فراشه نام نوماً عميقاً تخلله أحلام عن الثوار والفرنسيين.

لم يكن اتصال أبي هانئ بالثوار عسيراً فبستانه يبعد عن قرى المليحة والبلاط وجسرين وكفر بطنا حيث مرابط الثوار بضعة كيلومترات وهو يستطيع أن يقطعها بدراجته على الطريق العام بكل يسرٍ أو عبر البساتين والأنهار.

كان لدى أبي هانئ بندقية صيد مزدوجة، يصطاد بها العصافير والطيور ويقتل بها الأفاعي والكلاب الضالة، ويعتدها للدفاع عن نفسه من اللصوص.

صلى أبو هانئ الصبح ثم حمل بندقيته وما كان لديه من رصاصات معدودة، ثم تسلل عبر البساتين ومن خلال الأشجار، يجتاز السواقي ويمضي بين الحقول حتى وصل إلى مشارف قرية المليحة، وفجأة سمع صوتاً قوياً يقول: قف مكانك وارمِ سلاحك... ونظر أبو هانئ فإذا مجموعة من الثوار كانوا يتولون الحراسة والاستطلاع، فرمى بندقيته وصاح: مرحباً يا شباب!! أنا أخوكم، وقد جئت لأنضم إليكم، وتقدم أحدهم فالتقط بندقيته بينما صار آخر وراءه يوجه البندقية إلى ظهره وسايره آخران من جانبه وقال الرجل وراءه: سر إلى الأمام ولا تتكلم...

ومشى أبو هانئ طائعاً وما مضت دقيقتان حتى وجد نفسه أمام مجموعة كبيرة من المجاهدين يتوسطهم شيخ مهيب ذو لحية بيضاء قد لف رأسه عمامة بيضاء قصيرة تتدلى من أطراف رأسه، ووضع صفوفاً من ذخيرة البنادق في حاويات جلدية شدها على سير يحيط بصدره وكتفيه وأمامه بندقية فرنسية.

وصاح المجاهد الثائر في المقدمة: لقد وجدناه على مسافة قصيرة من هنا متغلغلاً بين البساتين ومعه هذه البندقية وقد ذكر أنه حضر لينضم إلى صفوف الثائرين المجاهدين. وأشار القائد الشيخ لرفاقه أن يبتعدوا عنه ثم طلب من أبي هانئ الجلوس فسأله عن اسمه وعنوانه وعمله ولماذا يريد الانضمام إلى الثورة؟؟

وتكلم أبو هانئ بهدوء ورباطة جأش وأجاب عن الأسئلة كلها وذكر كيف حضر صلاة الجمعة وسمع خطبة الخطيب فأثرت فيه وأنه حضر ليدافع عن دينه وبلده ضد المستعمرين الكفرة وأنه يرجوا من الله أن يرزقه الشهادة.

وأطرق الشيخ قليلاً وقد أحس في كلام أبي هانئ روح الصدق والإخلاص، ولكنه كان مضطراً للتثبت من صحته، إذ لا بد حتى يكون أحدهم عضواً في مجموعة الثائرين المجاهدين أن يعلم أمره بما يكفل السلامة لإخوانه... وصاح الشيخ في الحاضرين: مَن منكم يعرف هذا الرجل ويزكيه ويضمنه؟ وصاح أحد الثائرين: أنا فإني أعرف أبا هانئ منذ زمن بعيد وبستانه قريب من بستاني وأنا أعرف دينه وخلقه، وكنت أزوره في بستانه وأشرب الشاي عنده وكنا نتسامر ونتحادث، فما وجدت فيه عيباً ولا نقصاً وما ذكره الآن كله صحيح وأنا أثق به مثلما أثق بنفسي. وقال ثائر آخر: أنا ما زرته في بستانه ولكنني أراه وهو يركب دراجته ويتجه إلى المدينة أو يعود منها، وما رأيت منه ما يعيب وكان كلما مر من جانب مسجد أُبي بنُ كعب رضي الله عنه كان يتوقف لأداء الصلاة فيه. ولقد استرعى انتباهي حاله، فسألت أحد جيرانه عنه فذكره بالخير وأثنى عليه ثم اختلى القائد الشيخ بأعضاء قيادته لفترة وجيزة ومن ثم عاد ووجه كلامه إلى أبي هانئ: قل أقسم بالله العظيم أن أكون مخلصاً في جهادي لله عز وجل وأن أطيع قادتي وأن أبذل ما أقدر عليه من مال وجهد في سبيل نجاح الثورة وتحرير الوطن من المحتلين.

وردد أبو هانئ القسم. وحينذاك ضمه الشيخ إلى صدره وقال: أنت الآن أخ لنا، لك ما لنا وعليك ما علينا ونسأل الله أن يجعل جهادنا خالصاً لوجهه. وفي سبيل رضاه وأن يأجرنا فيه ويرزقنا الشهادة ويدخلنا الجنة.

وحين ابتعد الشيخ عن أبي هانئ كانت دمعتان تسيلان على خدي أبي هانئ.

جلس الجميع يتداولون في شؤون الثورة وأفعال الفرنسيين. وسأل الشيخ القائد أبا هانئ: ألا تزال تذهب إلى عملك صباحاً وتعود ظهراً أو مساء؟! وقال أبو هانئ: نعم... واستمر الشيخ في الكلام فقال: لا بد أنك تمر على مفرزة التفتيش في منطقة الباب الشرقي كل يوم مرتين؟ وهم لا ريب لا يشكون فيك وقد ألفوا غُدوَّكَ ورواحك وعرفوا وجهك ولم يلحظوا منك ما يسئ إليهم...؟! ونحن نريد أن نستغل موقفهم هذا منك فنتعرف أخبارهم وما يخبؤون لنا من شر وسوء والذي نريده منك أن تتحسس لنا أخبار الجيش الفرنسي وأن ترصد تحركاتهم وتجهيزاتهم وخططهم. كما أننا بأمس الحاجة إلى الأسلحة مهما كان نوعها وجنسها وإلى الذخيرة فأسلحتنا فردية ومتنوعة منها الإنكليزي والفرنسي والتركي، والمشكلة التي نعانيها أننا لا نجد دائماً الذخيرة الملائمة لنوع السلاح، وأنت الآن يا أبا هانئ لست معروفاً بأنك من الثوار وتستطيع أن تستغل وضعك وأن تساعدنا، فعد إلى بستانك وبيتك وعملك وليكن همك أن تجمع لنا أخبار الفرنسيين وأن تشتري لنا ما تستطيع من السلاح أو الذخيرة سواء أكان ذلك بندقية أم مسدساً أم قنبلة أم رصاصاً وعليك أن تتحلى بالحيطة والحذر.

ودع أبو هانئ إخوانه الثائرين بعد أن طلب من الشيخ القائد أن يبقي بندقيته لديهم فلعلها تلزمهم ولكن الشيخ أبى ذلك وطلب من أبي هانئ أن يحتفظ ببندقيته فقد تلزمه.

عاد أبو هانئ إلى بستانه وبيته عبر البساتين ومن خلال الأشجار والمزروعات حتى إذا وصل بستانه أحضر سلماً ثم صعد شجرة الحور الكبيرة كثيفة الأغصان فأودع فيها بندقيته ورصاصاته، ثم عاد فجلس أمام غرفته وقد وضع إبريقاً من الشاي وراح يشربه كأساً بعد أخرى وهو يفكر فيما يجب عليه أن يصنع.

كانت فرنسة قد جعلت في منطقة الباب الشرقي وهي مدخل ومخرج الغوطة الشرقية تفتيشاً دقيقاً، وإلى جانب نقطة التفتيش توجد ثكنة عسكرية كبيرة قد امتلأت بالجنود والعربات المصفحة.

وراح أبو هانئ يفكر كيف يمكن أن يشتري السلاح للثوار ويحضره لهم ويمر به في نقطة التفتيش دون أن يحس به الفرنسيون؟ ورأى أبو هانئ أن الخطوة الأولى هي اكتساب ثقة الجنود في منطقة التفتيش حتى تفتر همتهم في تفتيشه.

وفي اليوم الثاني، ركب أبو هانئ دراجته بعد أن ملأ صنوق دراجته بفواكه شتى كالدراق والأجاص والخوخ التي قطفها من بستانه واتجه نحو المدينة، وفي منطقة الباب الشرقي، استوقفته مفرزة التفتيش، فنزل عن دراجته وألقى التحية عل الجند، وبينما هم يفتشون صندوقه، كان أبو هانئ يشتكي من الثائرين وكيف أنهم يدخلون البيوت والبساتين ويقطفون الثمار ويصادرون الأطعمة والأموال ويعتدون على الرجال والنساء، ويقول للجنود: متى ستحضرون وتخلصوننا منهم؟

ووجد الجند الفرنسيين في كلام أبي هانئ ما يوحي بأنهم يستطيعون الاعتماد عليه في تعرف أخبار الثوار. ولم يدركوا أن كلامه كان خدعة لهم حتى يثقوا به، وراحوا يسألونه عن الثوار وهو يجيبهم ويخترع لهم القصص والأكاذيب، مما بعث السرور في أنفسهم فطلبوا منه أن يكون مواطناً صالحاً وأن يزودهم بأخبار الثوار مهما كانت صغيرة أو كبيرة فوعدهم خيراً، ثم مد يده إلى ثمار الدراق والكمثرى والخوخ يوزع منها عليهم عربون الصداقة الجديدة.

كان موقف أبي هانئ هذا أول خطوة في اكتساب ثقة الجند الفرنسيين والذي يتوقع أن تُساعده ليمر في المستقبل بلا تفتيش.

حين عاد أبو هانئ عصراً نحو بستانه كان قد ملأ صندوق دراجته بأنواع مختلفة من الحاجيات والأطعمة ووقف عند نقطة التفتيش وبدأ يفرغ ما في صندوقه مبادراً الجنود وموحياً إليهم بأنه إنسان نظيف لا يرتكب مخالفة، ولم ينسَ قبل أن يغادر أن يقدم لهم بعض الحلوى هدية.

استمر أبو هانئ على هذه الشاكلة أسبوعاً حتى نال ثقة الجند ورئيسهم وحين مر صباحاً ودعاهم إلى تفتيش صندوقه رفضوا وقالوا: امض ولكنه لم يسر قبل أن قدم إليهم بعض الفاكهة، وحين عاد مساءً وتوقفَ للتفتيش أشاروا إليه أن يمضي، ولما قدم لهم بعض الأطعمة لم ينس أن يقول لهم: متى ستخلصوننا من هؤلاء المسلحين الذين نهبوا بساتيننا وبيوتنا؟... وقال رئيس المفرزة: انتظر ثلاثة أو أربعة أيام وسترى ماذا سيحل بهم، فطلائع الحملة الفرنسية التي

ستقضي عليهم قد وصلت إلى الثكنة العسكرية المجاورة وهي في سبيل استكمال عَدَدِها وعُدَدِها وتجهيزاتها وأسلحتها. ورحب أبو هانئ بمقدم الجند وتجهيز الحملة بلسانه لكن قلبه كان يغلي غضباً وحقداً على الفرنسيين.

وحين وصل أبو هانئ إلى بستانه أودع أغراضه في غرفته وأسند دراجته إلى الحائط، ثم خرج يسعى بين البساتين والحقول مسرعاً حتى وصل إلى مركز الثوار المجاهدين، وقابل الشيخ القائد وحكى له كيف استطاع أن يكسب ثقة الجند الفرنسيين وذكر ما حدثوه به، وبحث معه في الخطوات المبدئية التي سيتخذها أبو هانئ لجمع المعلومات عن الحملة والأخبار بتحركها، واتفق الاثنان أن إشعال النار وانبعاث الدخان الكثيف سيكون علامة على تحرك الحملة.

كان أبو هانئ وهو عائد إلى بستانه عبر الحقول كلما لقي فرع شجرة مكسوراً أو غصناً يابساً من شجرة التقطه حتى إذا وصل إلى حقل خالٍ من الزرع جمع الحطب والأغصان بعضها فوق بعض ودس أسفلها بعض القش اليابس وهكذا حتى تمّ تجميع ثلاث مجموعات من الحطب على مسافات متباعدة في ثلاث حقول.

أغلق أبو هانئ باب بستانه وتسلق شجرة الحور واستخرج بندقيته منها ثم أحضر برميلاً صغيراً من البارود وبرميلاً آخراً من الخردق الرصاصي (حبات صغيرة من الرصاص) وما لديه من رصاصات فارغة وصواعق وقطعة من القماش، فملأ الرصاصات إلى نصفها

بالبارود وبقيتها بالخردق وسدها بالخرق سداً محكماً ودس في أسفلها صواعق متفجرة، ثم وضع واحدة في بندقيته وأطلقها على جذع شجرة فوجد النتيجة على خير ما يهوى، فَسُرَّ سروراً عظيماً وصفّ الرصاصات في حزام من الجلد جُعِلَ فيهِ لكل رصاصة حجرة خاصة بها حتى استنفذ الرصاصات، ثم طوى الحزام على بعضه وجعله في كيس ورقي وتسلق شجرة الحور الكثيفة فأودع البندقية والكيس فيها.

وفي صباح اليوم التالي ركب أبو هانئ دراجته ووضع بعض الفاكهة في صندوقها ثم اتجه نحو المدينة. وفي مركز التفتيش ألقى التحية على الجنود الفرنسيين وقدم إليهم بعض الفاكهة، فأشاروا إليه بالمرور دون أن يفتشوه وحين وصل إلى قبالة باب الثكنة العسكرية نزل عن دراجته وتظاهر بأنها قد تعطلت، وفك سلسلة الحركة.

وراح يتباطأ في إرجاعها، وعينه ترقب داخل الثكنة ينظر إلى الجند ويحاول تقدير عددهم وتجهيزاتهم العسكرية حتى إذا ظهر أنه قد آن له أن يسير ركب دراجته ومضى إلى عمله.

خرج أبو هانئ من عمله ومضى إلى منطقة العمارة حيث افتتح صديقه ابن الذهبي دكاناً صغيرة يبيع فيها الشاي والقهوة ظاهراً ولكنه في الحقيقة كان تاجر أسلحة إذ أقام علاقات مع الجنود المغاربة الذين يخدمون في الجيش الفرنسي، وكانوا يسرقون الأسلحة من مستودعات الجيش ويبيعونه إياها.

ذكر أبو هانئ لصديقه ابن الذهبي ضخامة الحملة التي يعدها الجيش الفرنسي للقضاء على الثوار، وبّين أن الثوار بحاجة ماسة إلى سلاح بمختلف أنواعه والذخيرة بأشكالها المتعددة، وحاول ابن الذهبي أن يتأكد من أبي هانئ عن نوع الأسلحة والذخيرة... وقال أبو هانئ: كل ما تستطيع الحصول ومن أي نوع وجنس نحن بحاجة إليه سواء أكان بنادق أم مسدسات أم بارود أم رصاصاً أم قنابل يدوية.. ووعد ابن الذهبي أبا هانئ خيراً وطلب منه أن يمر عليه غداً.

ركب أبو هانئ دراجته بعد أن ملأ صندوقها بالأطعمة والخبز والخضار والنقولات. وما أن وصل نقطة التفتيش حتى رأى حشداً كبيراً من الناس والجنود يفتشون كل فرد في حاجياته وملابسه وجسده. وقال أبو هانئ في نفسه: الآن سأعرف ما إذا كانت الثقة لا تزال مجدية، واتجه نحو رئيس مفرزة التفتيش وألقى التحية عليه وكان الرجل مشغولاً بالتفتيش فنظر في وجه أبي هانئ وابتسم وأشار له بالمرور من دون أن يفتشه وشكره أبو هانئ وقدم إليه كيساً صغيراً من النقولات.

كان فرح أبي هانئ كبيراً، فما جرى اليوم دليل على أن الجند يثقون به وأن هذا سيسهل مهمته في الأيام القادمة، وتناول أبو هانئ غداءه بضع لقيمات على عجل ثم خرج من بستانه يسعى بين البساتين والحقول متجهاً نحو قريتي المليحة والبلاط، ولم ينسَ أن يمر في طريقه على أكوام الحطب والقش التي صفها، حتى إذا اطمأن عليها انطلق إلى مركز الثوار فألقى التحية على من قابله واتجه نحو الشيخ

القائد وتلقاه الرجل بالترحاب وقال: لقد تحققنا يا أبا هانئ من صدقك وأرسلنا من استطلع الوضع ويظهر أنها ستكون حملة كثيرة العدد جيدة العتاد. والفرنسيون في حالتهم العسكرية متفوقون علينا من حيث العدد والتجهيزات العسكرية، ولكننا متفوقون عليهم بالإيمان بالله وإننا نقاتل دفاعاً عن أرضنا وعرضنا وشرفنا ودیننا ورغبة في الشهادة والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالنصر وإن كانوا أقلة فقال: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله». والمهم أن نُخْلِصَ النية لله وأن نحسن الاستعداد والتخطيط عملاً بقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

وقال أبو هانئ في استحياء: لست عسكرياً ولا ضابطاً ولم أدرس الفنون العسكرية، ولكن يخطر لي فكرة إذا سمحت لي بعرضها عرضتها فإن كان فيها فائدة فخير من الله، وإن كانت سخيفة مضحكة فقد أضحكتك وسرتك. وعلى كل حال فلكم أنتم القيادة وتقرير الأمور وعلينا السمع والطاعة.

قال الشيخ القائد: تفضل.

قال أبو هانئ: الذي أظنه أن عنصر المفاجأة للفرنسيين يلعب دوراً كبيراً في تحقيق النصر، وأنتم تقيمون هنا والفرنسيون يعلمون ذلك فهم إذا ما اتجهوا نحوكم وكان بينكم وبينهم مسافة، فسيسيرون بطمأنينة وأظن أنه من الأفضل ألا ننتظرهم حتى يصلوا إلى هنا متأهبين مستعدين والأفضل أن نباغتهم ونأخذ زمام المبادهة منهم

وأنتم تعلمون أنه على بعد ما يقرب من كيليين [كيلو مترين] يوجد مكان اسمه الذهبيات، تكثر فيه أشجار الجوز الكبيرة وأشجار الحور الضخمة التي لو اختفى وراءها إنسان، فإن أحداً لا يستطيع أن يراه كما أن مزروعات كثيفة من الذرة والقنب التي لو دخل الإنسان فيها فلا أحد يكتشف موضعه. ويمكننا أن نستغل هذا المكان بشكل جيد فيكمن الثوار على أغصان الأشجار وخلفها وبين المزروعات وفي مسيل السواقي ويتترسون هناك، وينتظرون حتى إذا مرّ بهم الفرنسيون مطمئنين إلى أنه لا يزال بينهم وبين موقعنا هذا مسافة، وأصبحوا في نصف المصيدة حيث الثوار قد أحاطوا بهم من المقدمة إلى المؤخرة وأعطيتم إشارتكم فانطلقت النيران عليهم من فوقهم وعن يمينهم وشمالهم ومن أمامهم وخلفهم، فلا يدرون من أين يضربون فتذهلهم المفاجأة ويضطربون وتحل فيهم الفوضى فلا يدرون ما يصنعون وهذا سيضطرهم إلى الفرار وترك أسلحتهم وقتلاهم وجرحاهم. فإذا تم لنا النصر بإذن الله جمعنا الغنائم وانسحبنا من بضعة قناصين يناوشون من سيعودون من الفرنسيين لسحب القتلى والجرحى.

وضحك الشيخ القائد ملء شدقيه، وقال أبو هانئ: لقد قلت لك يا سيدي إنها ربما تكون فكرة سخيفة، ولكن الشيخ بادر فقال: لا يا أبا هانئ فأنا أضحك من نباهتك وذكائك فالبارحة كنا نناقش في اجتماع القادة الخطة التي سنتبعها في ملاقاة الفرنسيين وكان جزء كبير من الخطة ما ذكرت فكأنك كنت معنا. وبارك الله فيك يا أخي... ولكن!! قل لي: هل بقي شيء في ذهنك؟ ورد أبو هانئ: نعم... فإذا سمحت

أنما أريد أربعة رجال يساعدونني فإنني سأذهب إلى الباب الشرقي عبر البساتين وأفتش عن شجرة حور عالية فأكمن بين أغصانها ومن خلفها حيث لا يراني الجنود بينما يكمن ثلاثة من الرجال في أشجار حور متباعدة، ويقف الرابع أمام كومة الحطب الأولى فإذا رأيت الفرنسيين يتحركون أشرت بعلم أحمر أحمله، فيراه من على شجرة الحور التالية فيشير بعلمه فيراه من على الحورة التالية فيشير بعلمه ويراه من بعده فيشير بعلمه فيراه من وهو واقف أمام كومة الحطب فيشعل النار وينطلق الدخان فترونه وتتخذون احتياطاتكم وتتأهبون للقاء العدو... وتستعدون لها.

وقال الشيخ القائد: بارك الله فيك يا أبا هانئ، فإن أفكارك جيدة ومفيدة وسأتدارس مع القيادة ما ذكرت وقدمت وسنوافيك بما قررنا فاذهب الآن واسترح.

عاد أبو هانئ مرتاح البال والضمير، فها هو قد أدى واجبه، وبقي عليه واجب آخر، فلا بد له غداً من الذهاب إلى ابن الذهبي ليرى ماذا استطاع أن يهيء من السلاح أو الذخيرة. ووصل أبو هانئ داره وهو يحس بفرحة تغمره وسعادة مستولية عليه وشعور بالطمأنينة، إنه أمر ما عهده من قبل ولا عرفه... إنه يكاد يطير ويحلق... أي شعور هذا؟! لم يستطع أن يفهم كنهه، ولكنه كان متأكداً أنه نابع من مشاركته في أعمال الجهاد.

اتجه أبو هانئ في اليوم الثاني نحو المدينة على دراجته كعادته، وحين مر على نقطة التفتيش أشار إليه رئيسها بالمرور فوهبه بعض الفاكهة، وسُر سروراً عظيماً فها هي الثقة لا تزال موجودة وهي سبيل

لتيسير أموره بإذن الله، ثم انحرف نحو اليمين فواجه بوابة الثكنة العسكرية وقد توقفت أمامها بعض العربات المصفحة وناقلات الجنود، ووقف أبو هانئ بعيداً عن الباب وبمكان يستطيع منه أن يرى ما بداخل الثكنة، ونزل عن دراجته وقلبها رأساً عل عقب وأفرغ ما في إطارها المطاطي من الهواء ثم راح يتظاهر بإصلاحها وملء الإطار بالهواء من جديد، بينما كانت عينه ترمق وبدقة كل ما يجري داخل الثكنة.

كانت ساحة الثكنة كبيرة تعجّ بالجند وقد نُصبت فيها الخيام والجنود يروحون ويجيئون وقد جمعوا بنادقهم على شكل أهرامات تجتمع في فوهاتها وتبتعد عند خمصانها [أسفل البندقية الخشبي]، وكان بعض الجند مشغولاً بتنظيف بندقيته أو رصف الرصاصات في جعبته. وراح يقدر أبو هانئ عدد الجنود الموجودين في ساحة الثكنة، وعدّ المصفحات التي كانت على باب الثكنة، فإذا هي ست مصفحات قد نُصب على كل واحدة فيها رشاش ومدفع صغير، وكانت حاملات الجنود ثماني حاملات تتسع كل واحدة لما يقرب من خمسين جندياً.

تمتم أبو هانئ: الله أكبر عليكم وأخزاكم الله، وعدل دراجته وامتطاها ومضى إلى عمله.

خرج أبو هانئ من عمله واتجه نحو دكان ابن الذهبي فألقى التحية عليه وتظاهر أنه يتفحص نوعية الشاي المعروض وسأل ابن الذهبي: ماذا تم معك؟؟ ورد ابن الذهبي: الأوضاع حرجة جداً، فالجيش الفرنسي مستنفر والاتصال بالجنود صعب، ومع هذا فقد استطعت أن أؤمن لك ثماني قنابل يدوية ومسدسين وبعض

الرصاص.. فقال أبو هانئ: لا بأس.. هي حصيلة جيدة ولكن متى ستؤمن لنا بعض البنادق والرصاص؟ ورد ابن الذهبي: دع الأمور على تيسير الله... ولكن أتوقع إن حصلت معركة قريباً بين الفرنسيين والثوار فستتاح الفرصة للجنود الفرنسيين أن يبيعوا بعض البنادق بحجة فقدها في المعركة وبعض الذخيرة بحجة إطلاقها في المعركة، وعلى كل يوجدُ تاجر آخر للسلاح داخل حي العمارة قبل أن تصل إلى منطقة الكلاسة اسمه: أبو كاسم فاذهب إليه وقل له: أرسلني ابن الذهبي، هل يوجد عندكم شاي؟! فإذا سمع منك ذلك وهذه كلمة السر بيننا اطمأن إليك ويمكن أن يمدك بما تحتاجه من السلاح إن وجد عنده.

قال أبو هانئ: أرجو أن تنتظرني قليلاً ثم اتجه إلى بائع الخضار فاشترى بعضها وأكثر من الجزر والخس، ثم اشترى بعض النقولات والسكاكر وبعض العوامة [لقمة القاضي] حتى ملأ صندوقه وعاد إلى ابن الذهبي. وقال ابن الذهبي: أترى الزقاق على يمينك؟! ادخل فيه وعدَّ حتى الباب الرابع على اليمين وانتظرني أمامه.

بعد حين حضر ابن الذهبي وفتح باب البيت، وأدخل أبو هانئ دراجته وأغلق الباب ثم أفرغ ما في الصندوق ثم صف الأسلحة في قعر الصندوق ووضع فوقها الجزر والخضار والخس، ثم النقولات والسكاكر والعوامة حتى كادت تقع من الصندوق لكثرتها ومن ثم ربطها بحبل...

وهكذا أصبحت الأسلحة تحت الأطعمة والوصول إليها ليس سهلاً وركب أبو هانئ دراجته واتجه إلى بستانه وهو يتلو ما يحفظ من القرآن والأدعية حتى وصل نقطة التفتيش في الباب الشرقي، فرأى الناس مجتمعة تنتظر دورها وأصابت الرهبة أبا هانئ وخشي أن يُكتشف أمره وخطر له أن يعود ويحاول المرور عبر بساتين الإحدى عشرية وهي منطقة كثيرة السواقي والغدران والأنهار، لكنه لم يكن متأكداً من خلوها من الجنود والتفتيش فإن الفرنسيين حريصون على سد جميع الطرق على الثوار. ثم إنه إن رجع خاف أن يثير الشبهة فضلاً عن أنه لن يمر لمرة واحدة واتجه بقلبه إلى الله وقال: يا الله يا مغيث استر علي وأغثني واتجه نحو رئيس المفرزة وهو يقول: الله أكبر الله أكبر بينما كان قلبه ينبض بقوة يكاد يخرج من فمه، وحين أصبح أمام رئيس المفرزة كان يقول: يا ستار استر علي وألقى التحية عليه وكان رئيس المفرزة مشغولاً بالتفتيش فأشار إليه أن يمر، فأخذ صحن العوامة وقدمه لرئيس المفرزة فأخذ حبة فجعلها في فمه لكن أبا هانئ أشار إليه أن الصحن له ولجنوده. وحياه رئيس المفرزة بينما انصرفت عيون الجنود عن التفتيش إلى صحن العوامة، أما أبو هانئ فقد انسل ببطء بدراجته حتى إذا ابتعد قليلاً ركب دراجته وانطلق كالريح المرسلة أو السهم المنطلق واتجه مباشرة إلى مقر الثوار المجاهدين.

تلقى الثائرون أبا هانئ بالترحاب، ولقي أبو هانئ القائد الشيخ وسلمه الأسلحة التي أحضرها وسُر الشيخ سروراً عظيماً وأثنى على أبي هانئ وإخلاصه، ونقل أبو هانئ إلى الشيخ ما رأى داخل الثكنة

وأمامها، واستلم ثمن الأسلحة ثم ترك الأطعمة التي أحضرها لزملائه، وأكد مع الشيخ الموعد وقال: سأنتظر الرجال عند الفجر بعد أن دلّهم على بستانه.

كان أبو هانئ يتقلب على فراشه وكأنه مستلقٍ على الجمر، وهو يفكر فيما يجب عليه أن يصنع فقد عز عليه أن يكتفي بالمراقبة من أعلى الشجرة فقط، وتمنى لو أنه يشارك في المعركة فلعله ينال الشهادة... وأخيراً أهداه تفكيره إلى رأي وأغفى قليلاً ثم استيقظ وقد أدرك أنه لم يبقَ للفجر إلا زمن قليل، فاستحضر الأعلام وصعد الشجرة فأنزل بندقيته وجعبة الرصاصات، وتهيأ للخروج وسمع صوت المؤذن فأدى صلاة الفجر وهو لا يكاد يَعْقِلُ ما يصلي حتى إذا ما انتهى سمع صوت أصحابه، ففتح الباب وخرج إليهم مرحباً، وأعطى كل واحد منهم علماً، وقدم بندقيته وجعبته إلى الرجل الذي سيوقد الحطب. وقال له: احفظ لي هذه معك وألقاك إن شاء الله قريباً من الحطب، ثم أعاد على الرجال أدوارهم وما يجب عليهم أن يصنعوا وقدم إليهم علب ثقاب، واعتنق الرجال وافترقوا فذهب اثنان منهم شرقاً إلى شجراتهم واتجه أبو هانئ مع صاحبه غرباً حتى إذا وصلا إلى شجرة الحور المعنية، ودّع أبو هانئ صاحبه وطلب منه أن يبقى على حذر وراح يسعى نحو شجرته وحين وصلها تسلقها بخفة ومهارة حتى وصل أعلاها، وكمن بين عروقها، وجعل مقامه من جهة الشرق بحيث لو نظر أحد من جهة الثكنة لم يره.

كان أبو هانئ يذكر الله وقد تسمرت عيناه على طريق الباب الشرقي الذي يؤدي إلى قريتي المليحة والبلاط، وهو يحاول أن يستطلع ما يجري داخل الثكنة، ولم يطل انتظاره، فقد بدأت الشمس تبث أشعتها فوق وعبر البساتين والحدائق والأشجار، وبدأت الصورة تتضح لأبي هانئ فها هما عربتان مصفحتان مجهزتان بمدفع ومدفع رشاش قد استلمتا بداية الطريق وقد جلس عليهما مجموعة من الجنود بسلاحهم الكامل... وخلف المصفحتين سيارتان مليئتان بالجنود تكاد تحمل كل واحدة ما يقرب من ستين جندياً وخلفهما عربتان مصفحتان كالأوليتان ووراءها سيارتان مليئتان بالجنود وقد سار خلفهما مجموعة كبيرة من الجنود الراجلة التي تمشي على أقدامها مجهزة بالسلاح الكامل وخلفهم سيارتان مليئتان بالجنود والعتاد ووراء السيارتين عربتان مصفحتان بمدفعيهما وجنودهما ووراء المصفحتين مجموعة من الحمير والبغال قد حُملت بالعتاد والذخيرة وخلفها سيارتان محملتان بالجند.

ولم ينتظر أبو هانئ أن يرى بقية الرتل، إذ هاله ما رأى من جند وعتاد، فأمسك بعلمه ولوح به ثلاث مرات وهو ينظر إلى الشجرة التي قبله، فلمح راية حمراء تتحرك فأدرك أن الرسالة قد وصلت فهبط من الشجرة مسرعاً، وراح يسعى بين البساتين حتى وصل الشجرة التي قبله فوجد صاحبه قد غادرها ولاحظ دخاناً قد بدأ يرتفع في الجو فأدرك أن الخطة تسير على ما يشتهي.

ومر أبو هانئ بالنار مرتفعة تنفث دخانها في الجو فقال: أجارنا الله من حر النار، ولكن ما أجملك من نار، وما أحلاك من دخان.

وهكذا مر أبو هانئ بأشجار الحور حتى وصل الشجرة الرابعة فوجد صاحبه ينتظره في أسفلها ومعه البندقية والجعبة واعتنق الاثنان ثم تحركا شرقاً، فرأيا الدخان يرتفع في الجو وأدركا أن صاحبيهما قد أديا المهمة وأشعلا النيران... وحين وصلا إلى كومة الحطب الأخيرة، ضحك أبو هانئ وقال: لقد حرصت أن أجعل في هذه الكومة حطب التين والتوت لأنه لا يشتعل سريعاً ويرمي بدخان كثيف كما ترى.

تابع أبو هانئ السير شرقاً وقال له صاحبه: ألا تعود إلى بستانك ورد أبو هانئ: إن بستاني سيكون في الجنة إن شاء الله، وأريد أن أشارك في المعركة فلعل الله يرزقني الشهادة وهي فرصة قد سنحت فلا يحق لي أضيعها.

وصل الاثنان إلى قرب معسكر الثوار فتلقاهما الحراس وحين عرفاهما صرحا لهما بالدخول، ورأى أبو هانئ الثوار المقاتلين يقفون على أهبة الاستعداد وقد وضعوا بنادقهم على أكتافهم وحزموا صدورهم بجعب الرصاص وهم ينتظرون الأمر من القائد بالتحرك... وقال الشيخ القائد: بارك الله فيك يا أبا هانئ فقد بيّضت وجوهنا... ولقد ذهبنا البارحة إلى منطقة الذهبيات ودرسنا الأرض على الطبيعة وحددنا لكل مقاتل مكانه... وقال أبو هانئ: يا سيدي أنا رأيت الحملة

الآن حين تحركت إنها مجموعة كبيرة من الجند والعربات المدرعة وحاملات الجنود، وإن هذا العدد الكبير يحتاج إلى عدد ضخم من الثوار أو أن يكون الانتشار كبيراً حتى يحيط بالجيش كله ويجعله تحت مرمى النيران. وقال الشيخ: إن هذا الأمر لم يفتنا فقد أرسلنا البارحة من استكشف عدد الجند وعرباتهم وأسلحتهم وجعلنا انتشارنا على طرفي الطريق ملائماً لهذا العدد من الجند.

فقال أبو هانئ: أتسمح لي أن أشترك في المعركة؟ فإني أتمنى الشهادة وأرغب في الجنة، وقال الشيخ: وهل أستطيع منعك؟ ولكن قل لي: كم تقدر أن الحملة تحتاج من الوقت حتى تصل إلى منطقة الذهبيات؟ ورد أبو هانئ: ما بين الساعة والساعة والنصف وقال الشيخ: أما نحن فنحتاج إلى عشر دقائق.

وقف الشيخ على مرتفع بسيط من الأرض ثم بدأ يخطب، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على سيد المجاهدين محمد وحدّث الثوار أنهم ماضون إلى معركة شرسة عددهم فيها كبير وعتادهم كثير وأن الواحد منهم ربما يصاب أو يموت لذا يجب عليهم أن يخلصوا النية لله وأنهم يقاتلون في سبيل رضائه ونيل الشهادة وتخليص البلاد من المستعمر الكافر وأنهم لا يقاتلون حمية ولا رياء ولا من أجل أن يقال عنهم إنهم أبطال، وأنهم سواء عليهم أماتوا أم انتصروا فإنما هم في عبادة الله ورضاه، وطلب منهم أن يحرص كل واحد منهم على مكانه سواء أكان على شجرة أم خلف شجرة أم في بطن ساقية أم بين عيدان الذرة وأن يلتزموا الهدوء حتى لا يحس بهم عدوهم وألا

يتعجلوا إطلاق النار حتى يسمعوا صوت طلقة مسدسه، وذكّرَهم أن النصر في هذه المعركة بعد توفيق الله قائم على عنصر المفاجأة فالقوى والأسلحة غير متكافئة وخَوَّفَهمُ من الفرار ودعاهم إلى الثبات وبين أن الذي يفر يبوء بغضب من الله ويخسر أجره وعمله.

وانطلق المجاهدون بين البساتين وهم يذكرون الله حتى إذا وصلوا منطقة الذهبيات اتخذ كل واحد لنفسه مربضاً فمنهم من اعتلى الأشجار ومنهم من اختبأ خلف الأشجار ومنهم من لبد في بطن السواقي ومنهم من دخل بين عيدان الذرة، أما الذين تسلحوا بالقنابل اليدوية فقد كانت أماكنهم على أغصان الأشجار حتى يسهل عليهم إلقاء قنابلهم في الموضع الذي يريدون، وهي العربات المدرعة وحاملات الجنود.

مضى الوقت بطيئاً والسكون يلف المنطقة إلا من حفيف أوراق الأشجار أو زقزقة العصافير، وكانت الألسنة تلهج بذكر الله وطلب النصر منه. ومن كان قد اقترف ذنوباً في حياته فإنه توجه إلى الله بطلب المغفرة.

ومرت ساعة أو أكثر حين أطلت طلائع الحملة الفرنسية في سيرها الرتيب. كانت المدرعات تسير ببطء وكان الجنود الفرنسيون مطمئنين فلا يزال مركز الثوار بعيداً وهم لم يتعرض لهم أحد طوال الطريق، وكان بعضهم يخفق برأسه من النعاس إذ لم ينم ليلته جيداً، وقادتهم قد حدثوهم أن الثوار مجموعة من المجرمين قليلة العدد وأنهم سيتمكنون من القضاء عليهم بيسر وسهولة.

مرت العربة المصفحة الأولى أمام أول ثائر من جهة الغرب مختبئ، وتمنى لو أنه يتعجل ويطلق النار على من هم وراء مدافعها، لولا أن الأوامر تمنع ذلك فلا بد من انتظار طلقة مسدس القائد الشيخ...

كانت الحملة الفرنسية تمر من أمام الثوار وكأنها أفعى تتسحب على الأرض وأفرادها غافلون عما ينتظرهم حتى إذا بلغت العربة المدرعة الأولى موقع القائد الشيخ بادر القائد بإطلاق مسدسه على رأس الجندي الواقف وراء المدفع الرشاش، وفي لحظة واحدة فتحت جهنم أبوابها فقد ألقى من كان على الشجر قنابلهم على العربات المدرعة والسيارات وأطلق الثوار نيرانهم على الجند، ووجد الفرنسيون أنفسهم أمام النار تأتيهم من فوقهم وأمامهم وجواً وبينهم وخلفهم فعرفوا أنهم قد وقعوا في كمين، فألقوا أنفسهم من العربات والسيارات وراحوا يركضون يبتغون مكاناً يتترسون فيه وهم يتساقطون كالفراش فوق النار برصاص الثائرين ويبحثون لأنفسهم عن ملجأ.

كان الرصاص ينهمر على الجنود الفرنسيين كالمطر، والقتلى والجرحى يتساقطون كتساقط الثمار من على الأشجار وكان أبو هانئ يكمن وراء شجرة وقد أمسك بندقية وعيناه مركزتان على الحملة وهي تمر إذ أبصر جندياً طويلاً قوي الجسم يمسك ببندقية جديدة وقال أبو هانئ: هذا هو الهدف وبندقيته خير هدية لي فسحب بندقيته وأسندها إلى كتفه وسدد إلى رأس الجندي وتخيل أنه يصوب إلى بطة برية قد حطت على شجرة، وما إن سمع صوت رصاصة القائد حتى

أطلق بندقيته على الجندي ورأى رأس الجندي يهتز ثم يقع على الأرض وحاول جندي بجواره أن يسنده لكن رصاصة أصابت رقبته فهوى إلى جانب صاحبه.

حاول الفرنسيون لملمة صفوفهم والتراجع قليلاً إلى الوراء ليتخلصوا من كثافة نيران المجاهدين، ولكن تلك النيران حجزتهم عن تحقيق رغباتهم، واستمرت المعركة ساعتين والفرنسيون يفقدون جنودهم واحداً إثر الآخر ووجدوا أنهم مهما بذلوا من جهد فلن يحققوا فائدة لأن صفوفهم اضطربت وبعضاً من جنودهم هربت وآخرين جرحوا أو قتلوا فقرروا الانسحاب والابتعاد عن نيران الثائرين.

لم يستطع الفرنسيون أن يقدروا قوة الثوار التي واجهتهم، ولكنهم كانوا في خوف وَوَجَلْ. وعمدوا إلى لملمة صفوفهم وأعادوا الكرة نحو أرض المعركة فوجدوها خالية من الأسلحة والذخائر وبعض العربات تشتعل فيها النيران وجنودهم صرعى بين قتيل وجريح. أما الثوار فإنهم غنموا وانتصروا وانسحبوا إلى مسافة قريبة واتخذوا لهم مواقع جديدة كان الخوف قد ملأ قلوب الفرنسيين فلم يتجرؤوا على السير قدماً إلى الأمام وقرروا العودة إلى دمشق فأخلوا جرحاهم وقتلاهم وسحبوا ما بقي عندهم من عرباتهم سالماً من بعد ما ملأوها بجثث القتلى والجنود الجرحى. وحين تحرك الجند الفرنسيون نحو دمشق كانت تلاحقهم رصاصات القناصة من الثوار التي كانت تزيدهم رعباً وخوفاً.

كانت غنائم الثوار كبيرة وافرة أما قتلاهم وجرحاهم فقليلة، لكن النصر الذي أحرزوه في المعركة كان عظيماً وقد أرعب الفرنسيين وجعلهم يفكرون في تغيير خططهم وترتيبهم في المستقبل.

سرى خبر هزيمة الجند الفرنسيين في مدينة دمشق سريان النار في الهشيم وصار حديث المجالس والاجتماعات، وتجرأ الأطفال الصغار على الفرنسيين فراحوا يرجمونهم بالحجارة ويصيحون «آبالافرانس» أي تسقط فرنسا، ولكن أراد الفرنسيون أن يتظاهروا بالنصر فعمدوا إلى إلقاء القبض على الفلاحين القادمين من الغوطة ليبيعوا خضارهم وحليبهم على الحائط ثم أطلقوا عليهم الرصاص ونقلوا جثثهم إلى ساحة الشهداء في دمشق وادعوا أنهم قتلى المجاهدين.

لم تنطلِ الحيلة على الناس بل زاد احتقارهم للجيش الفرنسي وازدراءهم له، ودفع هذا الموقف كثيراً من الشبان إلى الالتحاق بصفوف الثورة السورية فكان عمل الفرنسيين عامل خير للثورة.

كان الانتصار في هذه المعركة حافزاً كبيراً لدى أبي هانئ لمزيد من النشاط والخدمة للثوار ولاسيما حين زادت ثقته بنفسه بعد أن منحه الشيخ القائد بندقية من الغنائم بدلاً من بندقية الصيد التي يستعملها في المعركة وانتظر أبو هانئ يومين ثم عاد إلى دراجته وفواكهه وعمله. وادعى أنه كان مريضاً وأن الطريق غير آمنة.

وكان كلما انتهى من عمله يمم وجهه شطر ابن الذهبي ومن تعرفهم من تجار السلاح فيأخذ منهم ما جمعوه له من أسلحة وذخائر لأن فرنسا كانت تعد العدة لمعركة الثأر.

كانت سلطة الثوار قد اتسعت، فعمت الغوطة الشرقية في قرى جسرين وحمورية وكفر بطنا وسقبا، اتصلت الثورة بثورة جبل العرب والتهب الشمال بنار الثورة فكانت ثورة إبراهيم هنانو في منطقة حلب وثورة صالح العلي في منطقة جبال اللاذقية، ورأت فرنسا أنها إذا قضت على الثورة في الغوطة الشرقية وجبل العرب فإن القضاء على الثورة في الشمال يصبح أسهل، ولذلك جهزت الحملات العسكرية الكبيرة والقوية ووجهتها إلى جبل العرب فكانت معركة المسيفرة التي هزم فيها الفرنسيون هزيمة منكرة ووجهوا الحملات العديدة إلى قرى المليحة وجسرين والبلاط وحمورية وكفر بطنا، وقام أبو هانئ بواجبه كاملاً فكان يحضر الأسلحة ويترصد الحملات وينقل أخبارها ويشارك في معاركها، فلم تفته معركة ولا غاب عن موقعه وهو في كل معركة يستعذب الموت فلا يجده ويتمنى الشهادة فلا يحصل عليه... وكان يرى أن الله قد حفظه ليشارك في معارك أخرى ويبلي فيها ويكون له أجر.

حتى كان ذلك اليوم.. يوم معركة جسرين إذ كانت معركة حامية قاسية استعدت لها فرنسا استعداداً كبيراً وحشدت لها الجند والعربات المصفحة والأسلحة المختلفة. وقد استعد الثوار لهذه الحملة وقابلوها بجرأة وبطولة نادرتين، وبلغت المعركة أوجها حين أصبحت وجهاً لوجه، وكان أبو هانئ مشاركاً في المعركة وقد رأى الجندي على العربة المصفحة يطلق نيران رشاشه فيؤذي ويقتل المجاهدين فأخذ قنبلة بيده ثم اتجه نحو العربة ولكنه لم يخطُ سوى ثلاث خطوات حين

أحس بنار حامية تخترق ساقه وترمي به إلى الأرض، ولكنه تحامل على نفسه واتكأ على يده وألقى القنبلة وكان آخر ما رآه الجنود وهم يسقطون من أثر تفجر القنبلة ثم غاب عن الوعي.

أفاق أبو هانئ ليجد نفسه ممدداً في فراش وقد رُبطت ساقه من مفصل الركبة بضمادات كثيرة ورأى رجلاً يقف قبالته ويقول له: الحمد لله على سلامتك وعوضك الله عن رجلك خيراً فإنك قد أصبت برصاصة في عظم ساقك فتتت العظم، وقد خشي الطبيب أن يتسمم جسمك من مضاعفات الجرح واضطر إلى قطعها.

رقد أبو هانئ في السرير شهراً تقريباً حتى برئ جرحه، وكان عليه أن يجد عوضاً عن ساقه التي فقدها، ولما لم يكن هناك أعمال طبية متطورة تقدم لأبي هانئ ساقاً تعويضية. وُضع لأبي هانئ رِجْلٌ هي عبارة عن قطعتين من الخشب جمعتا على شكل زاوية منفرجة وقد سمرتا على عصا خشبية مدورة تقوم مقام الساق والقدم، وسُمِرَ على أطراف الخشبتين سيور جلدية وكان على أبي هانئ أن يلبس رجله في منطقة الركبة قبعة من الجلد لها سيور ثم يضع رجله بين الخشبتين ويشد سيور الجلد بعضها على بعض فتصبح الساق الخشبية ملتصقة برجله وتقوم مقام الرجل المفقودة.

كان على أبي هانئ أن يتمرن على السير بهذه الساق الخشبية، وقد لقي عنتاً في البداية حتى تمرس بذلك وبقي عليه أن يتمرن على ركوب الدراجة فلحم قطعة من الحديد على جسد الدراجة كان يسند رجله فوقها، وجعل على ركابة الدراجة سيراً جلدياً يدخل قدمه فيه فيثبت عليها وتساعده في تحريك الدراجة.

ركب أبو هانئ دراجته واتجه نحو المدينة وفي نقطة التفتيش لقيه قائد مفرزة التفتيش واستغرب غيابه الطويل وفقده رجله، ولكن أبا هانئ لم يعدم عذراً يرضي قائد المفرزة فقال: إنهم الثوار دخلوا بستاني وأخذوا قمحي وحين منعتهم، أطلقوا الرصاص على ساقي ففقدتها ورقدت في سريري هذه المدة ورقّ له قائد المفرزة وسمح له بالمرور، وذهب أبو هانئ إلى عمله وحين سئل عن شأنه أفاد أن حصاناً جامحاً يجر عربة رمحه بعمود العربة فكسر له ساقه ومر بالعربة من فوقها فتفتت عظمه واضطر إلى التخلي عن ساقه والاستعاضة عنها بساق خشبية.

وتقدم أبو هانئ بطلب يرجو إحالته على التقاعد صحياً واستجيب طلبه وخصص له راتب ضئيل، وأحس أبو هانئ أنه قد أصبح حراً وأنه بات أقدر على خدمة الثورة والثوار.

لقي أبو هانئ الشيخ القائد مستفسراً عن أية خدمات إضافية يريدها الثوار منه، وطلب الشيخ من أبي هانئ أن يلتزم حالة واحدة وهي إحضار الأسلحة وتقصي الأخبار وأنه من العسير عليه أن يشارك في المعارك، وهو فيما يجاهد ويسدي إلى الثورة عوناً كبيراً.

كثر تردد أبي هانئ على ابن الذهبي وغيره من تجار السلاح، وكان يستخدم صندوق دراجته حيناً أو يربط ما اشترى من الذخيرة على ساقه الخشبية مستغلاً أنها عصا رقيقة.

كان أبو هانئ ينظر إلى رجله الخشبية وهو يسرح في خيالاته وذكرياته، وقد عادت إليه صور الأيام الخوالي التي قضاها في نقل الأسلحة إلى الثوار وأحس بالسعادة تغمر نفسه على ما قدم للثوار من خدمات، وتذكر يوم وفد على ابن الذهبي وقد مر على أبي كاسم فلقي مجموعة من أصحابه واقفين على دكان ابن الذهبي وهو يصب لهم أكواب الشاي فسلّم أبو هانئ على أصحابه ودار الحديث عن الثورة والثوار والمعارك والانتصارات وافتقار الثوار إلى السلاح والمال وفجأة وجد أبو هانئ نفسه وأصحابه محاطين بدورية من الجند الفرنسيين التي تطوف الشوارع وتتحرى عن السلاح، وأحس أبو هانئ أنه وقع في الفخ، ونظر فرأى جرة الماء الموضوعة إلى جانب الدكان يشرب منها الناس، فأهوى أبو هانئ بيده إلى الجرة ورفعها والتفت يريد الانصراف بها نحو سبيل الماء متظاهراً أنه يريد أن يملأها، ولكن رئيس الدورية استوقفه وقد ظن أنه قد خبأ شيئاً في الجرة فأخذ الجرة من يده وقلبها فتساقط الماء منها، فاغتاظ لخيبة ظنه ورفس أبا هانئ بقدمه وقال: «آليه» بالفرنسية ومعناها: «اذهب»، وأخذ أبو هانئ الجرة وانطلق مسرعاً ورجله الخشبية تحدث صوتاً قوياً على الأرض نحو سبيل الماء فملأ الجرة ثم عاد الهوينا حتى إذا وصل لدكان ابن الذهبي وجد أصحابه يسبون ويشتمون ويلعنون، وسألهم: ما الذي جرى؟ وأجابه ابن الذهبي: أولاد الكلب أخذوني من هنا حتى إذا وجدوا مكاناً خالياً انهالوا علي لكماً وضرباً ورفساً... وقال أبو

هانئ: ومن أجل ماذا ضربوك؟! فردّ أبو عدنان: لقد وجدوا معي «موس» فصادروه وأخذوني وضربوني.. ضحك أبو هانئ ضحكاً شديداً كان موضع استغراب أصحابه وقال: كل هذا من أجل موس!!! ثم مد يده إلى حزامه فأخرج مسدسين ووضعهما على منضدة الدكان وقال: ماذا كانوا سيفعلون لو وجدوا هذه؟ وعاد يضحك.

وانتبه أبو هانئ إلى نفسه وهو يضحك، وصحا من ذكرياته، ثم نظر إلى رجله الخشبية أمامه مسندة إلى الحائط. وسكت وهو يهز رأسه ثم قال: يا الله ما أجمل هذه الذكريات لقد مضى عليها أكثر من ثلاثين عاماً ولكنها لا تزال تحرك قلبي وتبعث البهجة في نفسي... كم كانت أيام الثورة جميلة ومثيرة وممتعة، صحيح إنني فقدت فيها ساقاً لكنني أرجو من الله أن أطأ بساقي الخشبية هذه الجنة.

obeikandl.com

اليقظة

كنا زميلين ولم نكن صديقين

جمعتنا كلية التجارة منذ السنة الأولى حتى السنة الرابعة.

كان هادئاً بسيطاً صبوح الوجه، يتكلم بهدوء وبصوت منخفض، تلمع عيناه ببريق أخاذ يشد السامع إليه، وكانت ملابسه تدل على أنه متوسط الحال، لا يهتم كثيراً بمظهره ولكنه لا يهمله. وقد جرت عادته ومنذ السنة الأولى أن يجلس في الزاوية اليسرى من المدرج الأول بكل هدوء يتابع المحاضرات فإذا انتهت حمل كتبه ودفاتره بيده ثم انسل في هدوء وقد علمت أن اسمه نبيل.

أما أنا فقد كنت شاباً لاهياً طائشاً لا يعرف من حياته سوى الضحك والمجون والمرح والسخرية من الآخرين. نشأت في بيت غناً ومال، ما حملت هماً ولا عرفت في الحياة هدفاً ولا غاية سوى المتعة والسرور. كان أبي تاجراً كبيراً، أعظم طموحاته أن يجمع أكبر قدر ممكن من المال، لا يهمه في ذلك إن كان حلالاً أم حراماً، ولم يكن يفكر كيف يصرفه، فحيثما وجد ما يسعده دفع بسخاء فلم يبخل على نفسه يوماً، وما بخل على عائلته، وكان ينفق من غير حساب إذا وجد أن هذا الإنفاق يوافق هواه أو رغبته، وقد أطلق يدي في المال آخذ منه ما أشاء دون أن يسألني ماذا أخذت؟ وأين أنفقت؟ فهو لا يحاسبني

على قرش. وبلغ به الحرص على سعادتي أن اشترى لي سيارة فارهة وجعلها تحت تصرفي، ولم يكن يسألني متى أدرس وماذا أدرس؟ فقد كان يرضيه مني أني أنجح في نهاية السنة. وما كان النجاح عن دراسة أو ذكاء وإنما هي ظروف الامتحانات التي كانت تجمع بين الصدفة والغش.

كان من عادتي إذا دخلت المدرج في الكلية برفقة أصدقائي أن أملأه صخباً وضحكاً وصراخاً وتعليقاً وسخرية.

وكنت أحس أن بقية الزملاء كانوا يتضايقون من تصرفاتنا، وأنهم كانوا يتحاشون الاصطدام بنا هروباً من الشر، لكن الذي كان يضايقني بحق تلك النظرة التي كان ينظرها إلي نبيل من بعيد، فقد كانت تحمل في طياتها أكثر من معنى، لكن المعنى الذي كنت أحسه وأفهمه هو الاحتقار.

كنت أتحين الفرصة التي أحتك فيها به، لعلي أسخر منه فأرد إليه بعضاً من احتقاره، أو لعلي أضحك منه فيمتنع من هذه النظرة. لكنني كنت أفشل دائماً لأنه كان سباقاً إلى المدرج وجالساً في مكانه.

وذات يوم أنهى المدرس محاضرته باكراً وانسحب، وبدأ الطلاب يغادرون المدرج، وكانت عيني تلحظ نبيلاً وقد ثارت نوازع الشر في نفسي، وقررت أن أتحرشه، وشد من عزمي وجود أصدقائي معي، خرج من المدرج الأول واتجه نحو آخر القاعة حتى إذا صار بجانبي دفعته بكتفي دفعة قوية ألقت الدفاتر من يديه، وضحكت بصوت عالٍ

وضحك رفاقي. ونظر إليَّ بهدوء وسرح عينيه بيَّ من أعلى إلى أسفل... كنت قد هيأت نفسي لأشتبك معه بالأيدي فيما لو حاول أن يمسني... ولكنه وبكل هدوء انحنى فجمع دفاتره ثم قال لي: مسكين، أنت إنسان ضائع. ثم مضى... أدهشتني جملته فوقفت جامداً لا أنطق ولا أتحرك وتركز انتباهي كله على ألا يكون أحد من الرفاق قد سمع جملته لذا التفت نحو أسفل المدرج وأخرجت قلماً وأخذت أنقل بعض الكلمات التي تركها المدرس على اللوح، وكنت أحس أن وجهي قد احمر لونه، وأن يدي ترتجف.

غادرت المدرج وركبت سيارتي مع أصحابي، وكانت ضحكاتهم تخرج من السيارة عالية، وأصواتهم لا تزال تلفت الانتباه، لكنني كنت صامتاً فكلمة مسكين، أنت إنسان ضائع لا تزال تطن في أذني وتقرع في رأسي.

دخلت غرفتي وارتميت على سريري، وثارت الأفكار في دماغي: كيف سَكَتُّ أمامه؟ ولمَ لم أشتمه؟ ماذا كان موقفي لو أن رفاقي سمعوا كلمته؟ وشردت أفكاري ترسم صوراً ومواقف أرد فيها كلمته وأحقره أمام الآخرين. ولم يوقظني من تلك الأحلام إلا صوت والدتي تصيح علي أن طعام الغداء قد أصبح جاهزاً، فقمت متثاقلاً وقد قررت في نفسي أمراً، فكيف يجرؤ أن يقول عني بأنني مسكين مع أن أبي يملك الملايين، ويبذل لي ما أشاء، وسيارتي تحت تصرفي؟ وكيف أكون ضائعاً وأنا القادر على أن يجعل عشرات مثله ما تدري ما تصنع أو تفعل...؟!

وفي اليوم التالي انسللت من بين رفاقي، ودخلت المدرج فوجدته قاعداً في مكانه، فاقتربت منه وأنا أصوغ في ذهني عشرات الجمل والكلمات التي تسيء إليه، حتى إذا وصلت إلى جانبه التفت إلي... ونظر إلي بعيونه نظرة نسيت معها كل تلك الكلمات والجمل، ووجدتني أقول له: صباح الخير... ورد: صباح الخير مع ابتسامة حلوة طبعاً على شفتيه...

قلت: أريد أن أتحدث معك.

قال: نلتقي بعد المحاضرة في حديقة الكلية...

وانسحبت من جانبه بهدوء، ورجعت إلى المدرج الأعلى فجلست، وأنا محتار من أمري فأين الكلمات التي أريد أن أهزأ منه بها؟ وأين تلك الجمل التي أعددتها والتي أريد أن أحقره بها؟ وقلت في نفسي: لا بأس سنلتقي.. وسألقاه منفرداً حتى أكون المنتقم بنفسي، وحتى أشفي غليلي منه، وحتى نرى من هو المسكين ومن هو الضائع؟.

انتهت المحاضرة واختلط الطلاب بعضهم ببعض يسلمون أو يتحادثون أو يمزحون، وخرجت من المدرج إلى الحديقة، ووصلت إلى مقعد تحت شجرة كبيرة فوجدته جالساً هادئاً... لم يكن منظره يدل على أنه مضطرب أو خائف وجئت قبالته وبدلاً من أن أشتمه أو أنال منه وجدت نفسي أقول له: إني أريد أن أعتذر إليك عمّا جرى البارحة... وتبسم قائلاً: لا حاجة للاعتذار فأمس مضى بما فيه، والمهم اليوم أو غداً... تفضل استرح.

جلست وأنا مضطرب، وتشجعت فقلت: أنت البارحة أهنتني وقلتَ: إني مسكين وضائع وأنا لا أقبل الإهانة...

تبسم ثم قال: لا... أنا لم أهنك ومعاذ الله أن أصنع ذلك، وأنت زميل لي، إنما كنت أصفك بما فيك لأفتح عينيك على واقعك الذي كنت أراه منذ أربع سنوات ولا أزال...

قلت: أيمكن أن تقول: إن كلمتي مسكين وضائع لا تعنيان الإهانة؟

قال: إذا قلت: فلان مسكين قد صدمته سيارة هل تعد ذلك إهانة؟

وإذا قلت: فلان ضاع عن الشارع الذي يريده هل تعد ذلك إهانة له؟... أنا لا أهين أحداً لأنني أحترم نفسي قبل أن أحترم الآخرين، وأنا مصر على كلمتي: فأنت إنسان مسكين وضائع، وإذا أردت فأنا أبين ذلك فإن اقتنعت فقد انتهى الأمر وإلا فإني مدين لك باعتذار.

قلت على مضض: هات وبَيِّن...

قال: أراك مضطرباً وما أريد أن أتحدث فيه يحتاج إلى تفهم وتفكير فاهدأ حتى أتكلم.

قلت: لا عليك... تكلم.

قال: هل فكرت في هذا الكون يوماً وعلاقتك به؟

قلت: ولماذا أفكر فيه؟ فأنا أعيش بين جنباته، وأتمتع بما فيه من عوامل السعادة، ولا ينقصني فيه شيء...

obeikandl.com

قال: حسناً إنك تتمتع فيه، ولكن ألم تسأل نفسك كيف حصلت هذه العلاقة بينك وبينه، فكان مسخراً لك تتمتع بما فيه؟.

إن العلاقة بين شيئين تقتضي أن يكون أحدهما مهيئاً للصلة بالآخر، ومناسباً له... وأنت إنسان حي له أحاسيسه ومشاعره وانفعالاته، وهذا الكون جماد يتألف من حجارة وماء وأشجار وأزهار... إلخ، فكيف حصل هذا التناسق بين حي وجماد؟

قلت: لعلي الآن لم أعِ ما تريد...

قال: ألا ترى أن هناك تناسقاً في هذا الوجود بين موجوداته وعناصره سواء أكانت حية أم جامدة؟... بمعنى آخر ألا ترى أنك تستمتع بالزهر إذا أزهر وبالطير إذا غرد وبالشجر إذا أثمر وبالنسيم إذا اعتل... وأنت تتنفس الهواء فقد خلق مناسباً لك، وتأكل الطعام وهو مفيد لك، وتشرب الماء وهو سر الحياة لك...

فهنا يوجد علاقة وشيجة وقوية بينك وبين هذا الكون قائمةٌ على التلاؤم والتناسق بينكما، فالكون مسخر لك تستفيد منه وتتمتع به، وهو سبب الحياة لك... هل كلامي واضح؟

قلت: نعم... ولكن ماذا بعد ذلك؟.

قال: هل سألت نفسك من أقام هذه العلاقة بينك وبين هذا الكون تستفيد منه وتتمتع به؟ فهو مُفَصَّلٌ على قدك ومصنوع لك...

قلت: لم يخطر لي أن أسأل نفسي هذا السؤال، ولماذا أسأل هذا السؤال وأتعب نفسي به؟

obeikandl.com

قال: إذا أردت أن تحصل على الطعام فأنت تتعب في الجلوس إليه وفي أكله، وإن كان فاكهة تتعب في تقشيرها، وإن أردت الماء فإنك تتعب في الذهاب إلى الثلاجة كي تشرب وإن أردت اللباس فأنت تتعب نفسك في الذهاب إلى البائع وفي العثور على القياس واللون المناسبين لك... وكل هذه أمور تافهة زائلة يمكن تداركها بوسائل أخرى... وهذا الأمر الهام الذي يتعلق به مجمل وجودك وتفصيله لم تطرح على نفسك سؤالاً فيه، وتستغرب أن تتعب نفسك بمثل هذا السؤال!!!.

قلت: أنا أعلم أن الله الذي خلق الكون وسخره للإنسان.

قال: نعم أنت تعلم أن الله هو الذي خلق الكون وسخره للإنسان ولكن علمك هذا علم لسان، أي أنك تنطق به وينتهي بك الأمر عند النطق، ولكنك لم تنقل هذا العلم إلى يقين وعمل... فشأنك شأن الذي يعلم أن الماء هو سر الحياة، ولكنه لا يسعى إليه ليشرب فما هذا العلم بالنسبة إليه؟! أو شأن من يعلم أن النار تحرق، ثم يضع يده فوق الموقد، فماذا يفيده علمه أو قوله بأن النار تحرقه؟...

إن العلم الحقيقي بأن الله هو الذي خلق الكون وسخره للإنسان يقتضي أن يسأل الإنسان نفسه سؤالاً أساسياً وجوهرياً لماذا؟... لماذا خلق الله الكون والإنسان وسخر هذا الكون وما فيه للإنسان...؟! الله تعالى يقول: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون: 115].

القضية ليست قضية تسلية أو لهو بالنسبة لله عز وجل... وإنما هناك قصد وغاية من هذا الخلق القائم على التناسق والتسخير، تبدأ من ملاحظة هذا الخلق والتفكير فيه حتى يحصل الاقتناع القلبي فالله تعالى يقول: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات: 20 ـ21] فالإنسان بعد أن يشاهد مظاهر الخلق المختلفة التي تشير إلى وجود الخالق عز وجل... يحصل الإيمان القلبي بهذا الإله العظيم الذي خلق كل شيء وسخره للإنسان والذي يستحق الشكر على ما تفضل به وأنعم...

ولكن كيف يكون الشكر..؟! لو أردنا السفر إلى مكان ما فإننا نفترض وجود طرقات عديدة، ولكن المهم أن نعرف الطريق القصيرة النافعة التي توصل إلى ذلك المكان... فإن وضعت لي إشارة تدل على الطريق ويكون الذي شقوا الطريق هم الذين وضعوها فإن العقل والمنطق يفرضان عَلَيَّ أن أتبع هذه الطريق وألا أتعداها إلى غيرها... والله تعالى جعل طريق شكره هي عبادته فقال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56]. ولكنه حدد لنا طريق العبادة التي يرضاها والتي يقبل بها الشكر فقال: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: 153].

قلت: لقد وسعت الموضوع كثيراً.

قال: أرأيت. إن هذا معناه إنك لم تفكر بواجبك نحوه...!!

أتغضب بعد ذلك إن قلت لك: إنك مسكين لأنك لا تعرف معنى وجودك في هذه الحياة الحقيقية وإلى أين توصل هذه الطريق؟!!

قلت: سأفكر فيما قلت.

وأنا في الحقيقة أريد أن أفر من الحديث فقد أحسست بالتعب، وبأني أتعامل مع فكر جديد علي لم أكن مهيأ له من قبل.

قال: لا بأس... ولكن هل لا تزال تعتقد أني أريد إهانتك؟...

قلت: لم أعد قادراً على الجزم بذلك، ولكن سأفترض أنها ليست إهانة ومن ثم افترقنا...

كنت كمن يحاول الفرار من شيء يخافه ولا يعرفه، فقد كانت كلماته تعود إلى ذهني كلما حاولت الهرب منه أو صرفها عني... حتى أصبحت هاجسي... ورفيقي وصرت أحس بالقلق والتعب... فأنا في مرحلة اضطراب فلا أنا قادر على الانسجام مع هذه الأفكار لأن معنى ذلك أن أترك لهوي وطيشي، ولا أنا قادر على التخلص منها فهي لا تكاد تذهب حتى تعود...

بدأت لأول مرة في حياتي أحس بالحيرة، وأشعر بالقلق، ولا أدري ماذا أصنع، فإن لقيت رفاقي جرني لهوهم إلى اللهو، وصخبهم إلى الصخب، ومزاحهم إلى المزاح، وإن خلوت إلى نفسي كان سؤال خطير يسيطر على... إلى أين. وحتى متى... وما هي السبيل؟.

كنت أذهب إلى الكلية أتعمد أن أتظاهر بالمرح والصخب كما كنت أصنع في السابق لأبدو متماسكاً وأن شيئاً لم يتغير لدي.. وإذا وقعت عيني على نبيل كنت أطرح عليه التحية.. وأكتفي بذلك..

obeikandl.com

حتى جاء اليوم الذي كان الفصل في حياتي، يوم جئت إلى البيت ظهراً فوجدت أختي تبكي ولما سألتها عن سبب بكائها أفادتني أن أبي نُقل إلى المستشفى في حالة مفاجئة خطيرة. فسارعت إلى المستشفى وكان أبي في غرفة العناية المشددة غائباً عن الوعي...

وثار في نفسي سؤال نبيل: إلى أين توصل هذه الطريق؟!

وأحسست برعدة في جسمي... أيمكن أن يموت أبي؟... أيمكن أن يكون الرجل المليء صحة وعافية والذي كان مثال السعادة والسرور راقداً بلا حراك والآلات الطبية تحيط به من كل جانب وتدخل في جسمه من كل طرف؟...

مات أبي... وصُدع قلبي وعرفت أن الدنيا زائلة، وأن الإنسان إنما خلق لغاية في هذه الحياة عليه أن يؤديها، وأنه قد وضع في مواطن الامتحان الذي يبدأ تصحيح أوراقه عند الوفاة وأن كل كلمة قالها نبيل كانت حقيقة.

وحضر نبيل لتعزيتي... كان هادئاً كعادته وقال: أحسن الله عزاءك في مصابك وآجرك في فقيدك وغفر له... فردتني كل كلمة من كلامه إلى الله. فما ذكرني بدنيا ولا مال وإنما ذكرني أن نهاية المطاف إلى الله.

كان والدي غنياً وكان له من المشروعات التجارية العديدة وكان شريكاً مع عمي. ولكن.. حين جئنا نحصي التركة فاجأني موقف عمي، فما كنت أظن أنه سيكون بعيداً عن الحق متكالباً على المادة، فقد أنكر علينا شركة والدي في بعض مشروعاته وادعاها خالصة لنفسه، وأخفى أوراقها ووثائقها.

وثار جدل عنيف وصراع بيني وبين عمي، وعبثاً حاولت أن أرده إلى جادة الحق.. ضاقت بي الدنيا، واستولت علي الهواجس والأفكار الشيطانية وخطر لي نبيل، وخطرت لي كلماته السابقة.. فوجدتني أذهب إليه... فاستقبلني بحفاوة، وقال: أين أنت يا رجل فمنذ أكثر من شهر لم نرك في الكلية وأنت بهذه الحالة ستخسر دراستك..؟!

قلت: إن ما أنا فيه من الهموم قد غطى الدراسة وهمومها...

قال: خير إن شاء الله...

قلت: إنه عمي يا نبيل... شقيق أبي والذي هو بمنزلة أبي، لقد سلبنا حقنا فاستصفى لنفسه بعض المؤسسات التجارية المشتركة بينه وبين والدي وادعاها لنفسه، ونفى أن يكون لأبي علاقة بها.

قال: وماذا صنعت؟

قلت: لقد جهدت معه واتبعت كل سبيل وهو لا يزال يشتد صلابة وتصميماً على هضم حقوقنا، ولم تفلح معه وساطة ولا رجاء حتى ضاقت الدنيا بي واسودت في عيني، وبدأت تخالطني أفكار شيطانية في أن أقتله.

قال: أعوذ بالله يا رجل... ماذا تقول؟... هل لا تزال في ضلالك القديم؟ ظننت أن موت أبيك قد فتح عينيك على حقيقة الحياة.

قلت: من هذه الزاوية اطمئن فإن كلماتك التي حدثتني بها قديماً ظلت تلاحقني وأنا أهرب منها حتى كانت وفاة والدي...

فقد فكرت في ذلك الكم الهائل من السعادة والرفاهية والترف والمتعة الذي كان لوالدي.. فماذا بقي من تلك الساعات الحلوة التي قضاها، والملذات التي قطفها، والمال الذي جمعه، والمشروعات التي أقامها...؟ لقد خلف كل شيء ومضى دون أن يستفيد منه شيئاً لقد تفتحت عيناي على الحقيقة وأدركت أن الحياة زائلة، وأن الإنسان مهما عاش فإنه صائر إلى نتيجة لا محال منها، وأن الله قد خلق الإنسان وجعله موطن الاختبار والابتلاء، وكان رحيماً به فأرسل له الرسل وأنزل له الكتب لتدله على الطريق التي تسعده في الدنيا والآخرة، لذا فقد هجرت ما كنت فيه وتبت إلى الله، وأنا أحاول أن أسير على الطريق المستقيم ما استطعت.

قال: إنك تسعدني فيما أسمع منك، ولكن قل لي كيف ينسجم قولك هذا مما قلته قبل قليل في تفكر في قتل عمك؟

قلت: إنك لا تستطيع أن تدرك مقدار غيظي وحنقي منه، وإني كلما تذكرته أحسست ناراً تشتعل في جسدي، وأنه لا يطفئها إلا استرجاعي لمال والدي.

قال: وهل في قتلك لعمك تسترجع مال أبيك؟ إنك بفعلك هذا تخسر الدنيا والآخرة معاً، فسيكون مصيرك السجن إن لم يكن القتل، ولن تستفيد من مالك شيئاً وسيصبح اسمك القاتل... وحين تصبح بين يدي ربك فإن جزاءَك الخلود في جهنم.

قلت: إنني كلما فكرت أن الذي صنع هذا هو عمي يتيه عقلي وأصبح عاجزاً عن التفكير وأحس أني يجب أن أنتقم منه، فلو كان رجلاً غريباً لعذرته، ولكنه عمي... ألا تفهم كلمة عمي؟...

قال: أنا لا أفهم تماماً، وأقدر موقفك أعظم تقدير، وأعلم ما يختلج في نفسك، ولكن يظهر أنك نسيت أمراً هاماً جداً.

قلت: ما هو؟

قال: عدل الله وحكمته... إن الله عادل يا صاحبي ولا يقبل الظلم، وهو يمهل ولا يمهل... ثم إن الرزق مكتوب ومقدر، ولا ينال الإنسان ومهما بذل من جهد وتعب إلا ما كتب الله له. وليس للإنسان إلا أن يسعى حتى يُؤجَر في سعيه إن كان ما اكتسبه حلالاً. فإن كان الله قد قسم لكم هذا المال الذي اغتصبه عمك فهو سيعود إليكم إن آجلاً أم عاجلاً وإن كان قد قسمه لعمك فسيأخذه وبالاً عليه ولن يهنأ به في الدنيا، وسيحاسب عليه في الآخرة حساباً عسيراً. والله تعالى من أسمائه الغفور وهو يغفر للمذنبين الذنوب التي تتعلق بحق الله ولكن حقوق الناس لا تغفر وتبقى ليوم الحساب. ولو أحببت أن أفصل لك القول في هذا الميدان لاستغرقت الساعات الطوال. وأحمد الله أن عمك قد ترك لكم الجانب الأكبر من الثروة فلا تعيشون في ضنك ولا تحتاجون أحداً.

قلت: وهل معنى هذا أن أتركه يأكل حقي... ويتنعم به؟... ما رأيك أن أقيم عليه الدعوى أمام القاضي وأن أدعوه إلى أداء اليمين؟

قال: وماذا سيقول الناس، ابن الأخ أقام الدعوى على عمه؟... أترى ذلك مناسباً ويرضيك أن يصبح حديث الناس؟...

أنت الآن مظلوم، ولكن لو أقمت الدعوى فستصبح في عيون الناس ظالماً لأنك تطاولت على عمك وهو في منزلة أبيك، والناس لا تعرف الحقيقة. ثم أين صلة الرحم؟ وهل من هذه الصلة أن تقطع ما بينك وبين عمك، وأن تصبحا خصمين؟..

إن برّك بأبيك يدعوك أن تبر عمك.. وأن تصل رحمك واعلم أنك حين تترك عمك لعمله لا تطلق يده في مالك يأكله ويتنعم به إنما أنت توكله إلى حكيم عليم قوي عادل يحاسبه على فعله ويأخذ لك حقك منه.. واعلم أنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح والباطل قد يبدو فائزاً في البداية ولكنه في النهاية هو الخاسر والله تعالى يقول: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ [الرعد:17]..

قلت: وماذا تنصحني أن أفعل الآن..؟؟

قال: التفت إلى عملك، وأعطِ تجارتك حقها من الرعاية، وانس أعمال عمك واسأل الله أن يعوض عليك ما فاتك.

قلت: ما رأيك لو أنك تساعدني فتكون مساعدي في أعمالي وتجارتي وتتولى تسيير أمورها؟.

قال: قبلت بشرط واحد وهو الالتزام بشرع الله في تعاملنا التجاري..

ودارت الأيام، وأنا منهمك في عملي، وقد يسر الله لي أمر تجارتي فَنَمَتْ واتسعت، وكنت أحاول أن أنسى عمي وما صنعه معي لكنني لم أفلح فقد ظل عمله جرحاً في قلبي، وكنت كلما ذكرته اتجهت إلى الله وقلت: اللهم إنك تعلم أنه قد ظلمني فخذ لي حقي منه.

وذات يوم وأنا في مكتبي أراجع جداول الحسابات قرع جرس الهاتف وكانت والدتي على الخط وقالت لي: أتعلم يا بني أن عمك قد تعرض لحادث سيارة عنيف وأنه الآن في المستشفى. أجبتها: الله يزيده. هو أهل لذلك.

وأغلقت سماعة الهاتف ورحت أقفز في الغرفة من الفرح، فها قد نال جزاءه، والمال الذي سلبنا إياه لن ينعم به، وها هو سيصرفه على الأطباء والمستشفيات، ولو أنه فكر قليلاً لما صنع ما صنع. وبعد ذلك دخل الغرفة نبيل فرآني وأنا أقفز وأصفق وأرقص فاستغرب حالي، وقال: خير إن شاء الله لا بد أنك جد مسرور حتى أراك ترقص وتصفق...

قلت: بالطبع أنا سعيد ومسرور إنه عمي يا نبيل.

قال: خير ما به؟

قلت: إنه في المستشفى بعد حادث سيارة عنيف.

نظر نبيل إلي نظرة عتاب ثم قال: مَنْ؟!

قلت: إنه عمي.

قال: تقول إنه عمك أي شقيق أبيك وتربطك به صلة النسب ثم أنت مسرور لما أصابه، ترقص وتصفق؟!

قلت: وهل نسيت ما صنع بي؟

قال: لا لم أنس، ولكن هل نسيت أنت أن المسلم لا يحق له أن يحقد أو يحمل الحقد في نفسه؟ أو لم تسمع قوله تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ «آل عمران 134». لقد كان أحرى بك أن تكظم غيظك وغضبك على عمك، لا أن ترقص وتصفق، وأن تعفو عنه لأنك قد أوكلت أمره إلى الله.

قلت: الحق معك ولكني أصدقك القول أنا فرحان لما أصابه.

قال: وهل أخذت على الله عهداً ألا يصيبك ما أصابه؟.. لا يا صاحبي انفض يديك من الناس واجعل صلتك بالله طيبة وكُن من المحسنين.

قلت: وكيف أكون محسناً؟..

قال: اذهب لزيارة عمك والاطمئنان عليه.

صحت: أنا أذهب لزيارة عمي؟! هذا كلام غير معقول.. أنت تطلب المستحيل.

قال: ولِمَ هو مستحيل؟ إنه ممكن وعلى العكس ما تظن، فإنك في زيارتك لعمك تصل رحمك وتشعره بخطئه الذي اقترفه معك، وقد تحرك ضمير في مثل حالته، ونحن لا ندري حقيقة حاله، وهو لا ريب سيقدر لك زيارتك وأنك تجاوزت كل شيء وجئت لتطمئن عليه.

قلت: قد يظن إني جئت متشفياً به عما أصابه.

قال: ذلك يتعلق بالطريقة التي تقابله بها، فإن كانت زيارتك عادية لم تبد فيها لهفة مصطنعة ولا جفاء ظاهراً فتلك زيارة طبيعية لا تتم إلا عن الاطمئنان.

قلت: وهل تذهب معي؟

قال: أذهب وإن كان ذهابي ليس ضرورياً، ولكن أرسل فأحضر باقة من ورد نأخذها معنا إلى المستشفى.

دخلت غرفة عمي وقلبي يدق بشدة ويدي ترتعش وكنت أحاول أن أضبط أعصابي، ووجدته طريح الفراش وقد جبرت قدماه ورُبط رأسه وجرح كبير قد امتد إلى عينيه المضمدة، فما دريت أذهب ذلك الجرح بها أم لا؟....

ورق قلبي لما رأيته وأحسست بالعاطفة تجتاحني، والحزن لما أصابه ونسيت كل ما كان في نفسي من أسى وحقد عليه، وسلمت وتقدمت فقبلت رأسه وقلت: عافاك الله وسلمك.. أجر وعافية بإذن الله.. ورد عمي بضعف وقد أذهلته المفاجأة إذ ما كان يتوقع حضوري، وتقدم أولاد عمي نحوي يسلمون علي ويرحبون بي، وسألتهم كيف جرى الحادث وتمنيت له الشفاء، وكنت صادقاً في أمنيتي وجلست قليلاً ثم ودعتهم وانصرفت...

لست أدري أي شعور انتابني بعد خروجي من المستشفى، لقد شعرت أن ماء أبيض قد غسل قلبي فجعله صافياً نقياً لا يحمل غلاً ولا حقداً، وكل ما كنت أحمله في نفسي على عمي لم يعد له وجود في صدري، وأحسست أني قد أصبحت خفيفاً لا يثقلني شيء، وكنت أريد أن أقفز فرحاً للسعادة التي أحسست بها ولكنني خجلت من الآخرين.

ومضى يومان، وعدت إلى المستشفى مطمئناً على عمي، وتلقاني عمي وأولاده بترحيب أكبر، وجلسنا نتحدث كما كنا نتحدث في الماضي لا شيء يعكر كلامنا، لكن الذي أزعجني أن حالة عمي كانت تسير نحو الأسوأ، فقد خلفت الكسور له التهاباً في رئتيه حذر الأطباء من مغبته بعد ارتفاع درجة حرارته....

خرجت من المستشفى وأنا حزين من وضع عمي، وخطر لي أن يكون ما أصابه من دعائي إلى الله عليه... فاستغفرت الله وسألته العافية بكل صورها وقلت لنبيل:

أيمكن أن يكون ما أصاب عمي من دعائي عليه؟!

قال: إن الله هو الذي يستجيب الدعاء، وليس شرطاً أن تكون الإجابة فورية وقد يدخر الله الدعاء لصاحبه، وهو أدرى بشؤون عباده، فلا تحمل نفسك فوق طاقتها، ولا تبحث في أمور علمها عند الله، فقد يكون ما أصابه مُقَدَّراً له عند الله من قبل أن تدعو أنت، وما دعوت عليه ظالماً له، وما أوكلت أمره إلى الله إلا طاعة لله وتعففاً عن أن تريق بيديك دم عمك أو تقطع رحمك. والذي عليك فعله الآن أن تدعو له فذاك يريحك ويبعث الهدوء في نفسك.

وجئت مرة ثالثة المستشفى برفقة نبيل لأطمئن على عمي فوجدت وضعه قد زاد سوءاً وانحنيت على رأسه أقبله وأدعو له، وانحدرت دمعة من عيني عل خدي لتسقط على وجهه، ونظر إلي بعينه الواحدة فوجد عيني مغرورقتين بالدموع، فأشار إلي أن أقترب منه ثم رفع يده ببطءإلى وجهي ومسح الدموع عن خدي وقال: سامحني يا بني فقد ظلمتك.

فاجأني عمي بكلامه فلم أدرِ ما أجيبه، وجلست مطرق الرأس فترة، حتى إذا هدأت استفسرت من أولاد عمي عن حالته ورأي الأطباء فيها، ونظرت في وجهه فتمثل لي وجه أبي فاضطربت نفسي وغلبتني الدموع مرة أخرى...

وقال عمي بصوت ضعيف: اقعد يا بني واسمع مني ما سأقوله لك.. لقد كُنت شريكاً لأبيك في كل شيء وقد غلبني الشيطان والطمع بعد وفاته فأنكرت شركته في بعض الأمور واستخلصتها لنفسي، وعاندتك حقك وحق إخوتك، وظننت أني بقوتي قادر على تنفيذ إرادتي، ونسيت أن هناك من هو أقوى مني وهو رب العالمين.

ولقد أدهشتني حين جئت تزورني أول مرة بعدما صنعت معك ما صنعت، وظننت أن لك هدفاً خاصاً من زيارتك، ولكني اقتنعت بصدق عاطفتك في المرة الثانية، وأحسست بقلبي يخفق حباً لك، وشوقاً إلى أخي رحمه الله، وعلمت أن ذرة حُبٍّ لا تساويها أموال الدنيا كلها... وها هي الأموال... وأنا صائر إلى الموت سأتركها خلفي وسأحاسب

فماذا أفادتني..؟! إن الدمعة التي سقطت من عينك هذه حزناً على حالي وحباً لي أعظم من الكنوز والجواهر والقصور والتجارات، فهذه جمادات ولكن هذه الدمعة خفقة قلب مزجت بماء الحب.

وأشار بيده إلى ولده ثم تابع كلامه. فقال:

إنك بمنزلة ولدي وأنا لا أقول إن عليك حقاً، فقد فقدت هذا الحق يوم ظلمتك ولكن أقول إن لي عندك رجاء آمل ألا تخيبني فيه.

قلت: أنا رهن إشارتك يا عم، مُرْني وأنا أنفذ.

قال: لا بل إني أرجوك يا بني أن تسامحني فيما سببته لك ولأمك وإخوتك من أذى وظلم وأرجوك أن تسألهم مسامحتي، وتناول ظرفاً ورقياً كان ابنه يمسكه بيده فدفعه إلي وقال: هذه الأوراق حقك وأهلك وسندات مالكم لا تنقص قرشاً واحداً منذ أن غصبتكم إياها حتى اليوم، وفيها ما يعوض حرماني لكم من الاستفادة منها، وأموالكم وحقوقكم تحت تصرفكم منذ هذه اللحظة لا يحجزكم عنها شيء.

جمدت في مكاني فقد أذهلتني المفاجأة، وشتتت عقلي وتفكيري، أيكون ما أسمعه حقيقة أم أنه حلم؟! أنا الذي جهد وتعب للحصول على حقه حتى يئس منه يراه الآن أمامه يقول: خذني خذني... يا الله أية مفاجئة هذه!!.

وأفقت من شرودي على صوت عمي وهو يقول لي: خذ يا بني الظرف من يدي فقد آلمني مدها... وإني لأرجوك مرة أخرى أن تسامحني وأن تدعو الله أن يغفر لي ويخفف عني...

أمسكت الظرف من يد عمي ولم أدرِ ماذا أفعل وقلت من صميم قلبي: سامحك الله يا عمي، وغفر لك وشافاك وعافاك، ووقعت عيني على عين نبيل، لقد كانتا تلمعان لمعاناً غريباً ما رأيته فيهما من قبل وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

وحين خرجنا من المستشفى التفت إلي نبيل وقال: أرأيت بأنه لا يصح إلا الصحيح وأن الحق لا بد أن يعلو.

obeikandl.com

obeikandl.com

رجع الحنين

كثيراً ما تلتقي شخصيات تترك في نفسك بصمات مؤثرة وتجد نفسك مشدوداً إليها لتمتعها بصفات خاصة قلما تجتمع في شخص واحد. ومن هؤلاء الشخصيات بطل قصتنا هذه، فقد عرفته عرضاً في زيارتي لأحد أصدقائي، واسترعى انتباهي تلك الحيوية التي يتمتع بها والثقة بالنفس والجرأة على الدخول في كل موضوع والتحدث فيه وتناول جنباته وكأنه قد أشبعه دراسة وتمحيصاً، ومعرفة ودراية إلى جانب النكتة الحاضرة والجواب الجاهز والقصة الممتعة والطرفة المسلية.

تعددت لقاءاتي به فتوطدت بيننا أواصر الصداقة، وأصبح كل منا يطمئن لصاحبه، وازدادت الصلة فكأنما يعْرف أحدنا الآخر منذ زمن طويل.

عرفت من أمره أن أباه مات وخلف له أرضاً كبيرة في إحدى قرى غوطة دمشق فأغنته وسدت بمحصولها حاجاته المادية، إلى جانب بضعة بيوت زادته غنى، ولكنه لم يكتفِ بما يملك بل راح يمارس التجارة الخفيفة السريعة فيشتري بعض العروض، فإذا آنس منها ربحاً بسيطاً باعها، وبحث عن غيرها.

على أن أهم صفة تحلى بها كانت الإيمان العميق بالله والرضا منه بما قدر، فقد مضى على زواجه عشرون عاماً ولم يرزق بولد وكان دائم الحمد لله والشكر له. سألته يوماً: ألا تحن لأن يكون لك ولد يلاعبك وتلاعبه يسعى إلى جانبك، ويكون عدة لك في الشدائد وحين يتقدم العمر بك فيرعى شؤونك ومصالحك. فنظر إلي نظرة عميقة تحمل من معاني الأسى الكثير إلى جانب الرضا ثم قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ ومن منا لا يتمنى أن يكون له الأولاد لا الولد الواحد؟، يتمتع بالنظر إليهم ويحس أنهم قطع منه، ويعلم أن ما يحرزه في هذه الدنيا سيتركه إلى أعز المخلوقات لديه. ولكن يا صاحبي الأمر ليس بأيدينا وإنما هو بيد الله يصرفه كيف يشاء، فيهب لمن يشاء الذكور، ولمن يشاء الإناث، ويزوجهم لمن يشاء، ويجعل من يشاء عقيماً. ولا يملك العبد شيئاً أمام إرادة الله فليس له إلا الرضا والشكر، ومَن يدري إذا رزق الولد هل سيكون باراً أم سيكون عاقاً يجعل أباه يكره الدنيا وما فيها، واللحظة التي تمنى أن يكون له ولد؟.

قلت: على شديد إعجابي بإيمانك، وثقتي برجاحة عقلك وحسن تفكيرك، فإني أستغرب إجابتك وقولك فهل أنبأك الله أنه قد خلقك عقيماً، وهل أوحى إليك أن الولد الذي سترزقه سيكون عاقا، وهل اطلعت على الغيب فعرفت ما سيكون؟ أولم تعلم أن الله خلق الأسباب ليأخذ الإنسان بها وأنه كان حرياً بك أن تراجع الأطباء فقد تجد عندهم العلاج والله هو الشافي؟

ونظر إلي نظرة عميقة ثم قال: أو تظن أني لم أفعل.. فإنه بعد أن مضى على زواجنا سنة بدأ القلق يساور زوجتي ويساورني، وقالت زوجتي: لم لا نذهب إلى الطبيب ونطمئن؟! وأجبت لا حاجة لذلك فلا يزال الوقت مبكراً وما معنى مرور سنة؟ فقد تمضي بضع سنوات على كثير من الأزواج وهم لا يرزقون الأولاد فلننتظر ولنترك الأمر لله.

ومضت الأيام وأنا أرى علامات القلق في عينيها، وبدأت أنا أيضاً أحس بالقلق وفي إحدى الليالي وبينما كنا جالسين معاً لاحظت دموعاً تنساب على وجنتيها بهدوء وهي تحاول إخفاءها. وقلت بلهفة: ماذا يبكيك؟

وردت: لا شيء بينما كانت أصابعها تمسح دموعها. قلت: كيف لا شيء ولا تشغل فكرك؟ قلت: أقسمت عليك بالله أن تخبريني؟!

وبدأ صوتها مرتجفاً متلعثماً وقالت: هاقد مضت ثلاث سنوات على زواجنا وأنت لا تهتم بحياتنا ومستقبلنا ولا تحاول أن تبعث الطمأنينة في أنفسنا... قلت: كيف ذلك وما هو الأمر؟ قالت: أنسيت أنك كنت قد وعدتني بمراجعة الطبيب منذ سنتين، وأراك لا تحرك ساكناً، كأنك غير مهتم بما يسعدنا. وقلت: لا تحزني غداً سنذهب إلى الطبيب.

جلس الطبيب يتحدث ويكثر الأسئلة ثم طلب منا إجراء تحاليل متنوعة.

وحين عدنا بالتحاليل نظر فيها ثم قال: إن كل شيء طبيعي، وليس أمامكم إلا الانتظار وربط الأمل بالله وسأعطيكم بعض الحبوب المقوية.

رغم تناول الأدوية مرات عديدة، والانتظار الطويل الذي استغرق أكثر من سنة فإنه لم تظهر أي عوامل إيجابية، وبدأ القلق يتسرب إلى نفسي، فكيف تقول التحاليل ويقول الطبيب إنه لا توجد أيةَ مشكلة أو مانع من الحمل؟ لكني كنت خائفاً فقد خشيت إن راجعت طبيباً آخر أن يكتشف أحد منا عيباً يمنع من إنجاب الأولاد فيؤثر ذلك على انسجامنا في حياتنا الزوجية ولست أخفيك أن حبها كان قد سيطر على قلبي وملك علي نفسي فإلى جانب جمالها الأخاذ الذي يأخذ الألباب كانت تتمتع بصفات رائعة فقد كانت راجحة التفكير صاحبة حكمة وتبصر، هادئة لا تعرف الغضب، وهي سيدة بيت من الطراز الأول تعشق النظافة والترتيب وتهتم بأمور البيت وبملابسي وحاجاتي الشخصية وهي طباخة ماهرة بارعة تحسن طهي أنواع الأطعمة وحتى المعقدة منها، والحلويات، وأنا امرؤ أحب الطعام الطيب، وتغلب معدتي عقلي، ولست أقاوم اللقمة اللذيذة ولو كان فيها ضرر علي.. وقد أنستني هذه الميزات أمر الولد بمعنى أني لو خيرت بالبقاء معها دون ولد مع هذه الصفات، أو أن أرزق الولد من غيرها وأستغني عنها، لاستغنيت عن الولد وتمسكت بها.

ومع ذلك فقد كانت مراجعة الطبيب ضرورة. وقررنا تغيير الطبيب... وعدنا إلى ميدان السؤال والجواب. الطبيب يسأل ونحن نجيب ثم طلب تحاليل جديدة.

وعدنا إليه والتحاليل في أيدينا، ونظر فيها وتأمل وأطال التأمل ونحن نتطلع إليه بقلوب واجفة وأعصاب مشدودة، ونفوس قلقة، فكأنه القاضي الذي سيلفظ الحكم بالبراءة، أو الحكم بالإعدام وقال

الطبيب: أما أنت فلست أرى فيك باساً أو عيباً، وأنت رجل بكل ما في الكلمة من معنى... وأما أنت فلست متيقناً من صحة التحاليل، فهي لا تدفع إلى الجزم بالإيجاب أو السلب ولا بد لنا أن نلجأ إلى التصوير بالرنين المغناطيسي، فإن ذلك سيجلو لنا الأمور.

وعدنا بعد بضعة أيام بالصور والتقارير، نظر فيها ثم قال: هذا ما خمنته. وسألناه بلهفة ماذا هناك يا حكيم؟ وأجاب لا شيء ذا بال، فما تظهره الصورة وجود بعض العوالق وهي عادة لا تمنع الحمل ولكنها قد تعيقه، وسأصف لكم أدوية آمل من الله أن تكون مساعدة على الحمل.

خرجنا من عيادة الطبيب ودموع زوجتي تنساب على وجنتيها وهي تحاول إخفاء مشاعرها. وكانت دموعها جراحاً تنبض دماً من قلبي، وحاولت أن أهدئ روعها، وأن أخفف قلقها، وحين وصلنا الدار انفجرت باكية، ومضت إلى غرفة نومها، وألقت نفسها على السرير، وراحت تجهش بالبكاء.

وانتظرت قليلاً ريثما هدأ صوتها ثم تقدمت إليها ورفعت وجهها المبلل بالدموع، وقلت: إني أعرفك عاقلة فدعينا نتكلم... وهيا كفكفي دموعك وهدئي من حزنك... ولكنها استمرت في بكائها... ورحت أواسيها بكلمات جميلة أظهر فيها حبي لها وحرصي عليها، ورغبتي في سعادتها إلى أن هدأت وانقطع بكاؤها.

وقلت: تعالي نناقش مشكلتنا بالعقل، فأنا وأنت نريد الولد ونحرص على وجوده ولكن هذا الأمر أولاً وأخيراً بيد الله تعالى، ونحن ليس لنا إلا السعي وتحري الأسباب. وإذا لم يكن لله إرادة أن يرزقنا

الأولاد فليس لنا إلا الصبر والرضا. ونحن بإذن الله سنتابع تحري الأسباب ولو أدى ذلك إلى صرف آخر قرش. فما يفيد الآن البكاء والحزن؟! فدعينا نعيش حياتنا واتركي البكاء واضحكي للدنيا.

وكذلك يا صاحبي لو كشفت عن قلبي لوجدته يتفطر ألماً ولم يكن يصبرني إلا الإيمان بالله والرضا بما قسم، والاعتقاد أن هذه الأمور بيده.

وأمضينا من حياتنا سنوات كانت تمر بطيئة ونحن نخرج من عيادة طبيب وندخل في عيادة طبيب آخر حتى مللنا، ولا أخفيك أن رونق الحياة وروعتها قد ضعفا في نظرينا، وأصبحت أحس أن الدنيا التي أحياها ناقصة، ولم يكن لي من عزاء سوى التضرع إلى الله والدعاء بأن يغفر لي، ويرزقني الولد وكنت أحس بالراحة والسعادة حين أضع جبهتي على الأرض وأمضي في الدعاء والتذلل. وتصور أني كنت أكسل عن العناية بأرضي فقد كنت بذلت فيها جهداً كبيراً ومالاً كثيراً حتى أصبحت جنة مورقة، وزرعت فيها من شتى أنواع الورود وأشجار الثمار، ولم تعد الأرض تأخذ من تفكيري الشيء الكثير؛ فلمن أعمل وأتعب إن لم يكن لي ولد يرث ما صنعت؟؟.. واستدركت عليه وقلت: إنك مخطئ في هذا الموقف فنحن أمرنا بالعمل وأجرنا عليه ولنا به من الله مثوبة بصرف النظر عمن سيؤول إليه حاصل العمل ونتائجه.

قالت: إنك محق فيما تقول ولكن لا تؤاخذني فإن العواطف الإنسانية من الأمور التي يعسر التحكم فيها بسهولة.

وهذه العواطف عندي تهدأ تارة وتثور تارة أخرى وأنا بين تياراتها سابح كالزورق، أحياناً أثوب إلى نفسي فأطرد تلك العواطف وأمسك بها فلا أسمح لها أن تلعب في، وأخرى تهيج بين جوانحي وتكاد تعصف بي.

أتعلم وقد بلغت من العمر ثلاثة وأربعين عاماً أني مللت من الأطباء ومراجعتهم، وقررت ألا أذهب إلى طبيب فقد أنفقت من المال ما يكفيني، ومن الجهد ما يتعب، ومن العواطف ما يضني.

قلت: وما هي حال زوجتك؟ قال: وضعها طريف وسأحدثك به في جلسة قادمة، فإني الآن على موعد ثم سلم وانصرف واضطرتني أعمالي إلى السفر وغبت قرابة شهر ثم عدت وهتفت إليه لأطمئن عنه فرحب بي وأبدى شوقه إلي ووعدني أن يزورني.

وحين التقينا أخذ بأطراف الأحاديث المختلفة، وذكرته بما قد وعدني به من إتمام الحديث فقال: لقد كان هناك حديث كثير وفي غيابك حصلت تطورات كبيرة. وقلت: خير إن شاء الله فقد شوقتني وأثرت في الرغبة في معرفة ما جرى وما يجري..

وضحك حتى بدت نواجذه وقلت: أضحك الله سِنَّك ما الذي يضحكك؟ قال: اهتمامك بالأمر أكثر مني قلت: لا تبالغ، نحن على خط واحد.. المهم ماذا جرى؟!..

قال: في السنوات الماضية أحسست برغبة جامحة تدفعني إلى موقف عاطفي برئ، فإني كلما رأيت طفلاً صغيراً وجدت نفسي أمسك به وأرفعه، وأمسح رأسه وأقبله وأدعو له بالخير. وقد لاحظت زوجتي

ذلك حتى كانت ليل وقد سهرنا معاً حين وجهت كلامها إلي وقالت: أريد أن أحدثك حديثاً جاداً. قلت: خير إن شاء الله. قالت: أرجو منك ألا تعجل بالرد وأن تستمع إلي حتى النهاية. وقلت حسناً هاتِ..

قالت: ها قد مضى على زواجنا قرابة عشرين سنة، ونحن نعيش على أمل أن نرزق بولد، ولكن الله لم يأذن، وأنا لا أريد أن أكون ظالمة لك، ولعل العلة في عدم الإنجاب تكون مني، وقد فكرت كثيراً ووجدت أن أفضل حل هو أن أزوجك زوجة أخرى. وأدهشني الحديث دهشة كبيرة وقلت: ماذا تقولين؟! وأنت تزوجينني؟!! قالت: نعم أنا أزوجك فقد اخترت زوجة صغيرة أظن أنها ستنال رضاك وتعجبك؟

وقلت: هذا كلام لا أحب سماعه إذا سمحت، فإن نساء الدنيا جميعاً لا تقوم مقامك ولا تسد مسدك، وقد عشت معك دهراً، ولست مستعداً للتخلي عنك ولو كان في ذلك ذهاب روحي، فأنت بالنسبة لي الدنيا وبهجتها!!! قالت: انتظر قليلاً.. أريد أن أسألك لماذا أباح الله تعالى الزواج من أكثر من امرأة ولم يقصر الزواج على امرأة واحدة.. أليس من الأسباب ما نحن فيه، فلماذا نبتعد عن حل وضعه الله لنا وأباحه..؟! قلت: إني لست مستعداً للاستغناء عنك مهما كانت الظروف والأوضاع. وقالت: ومن قال لك إني مستعدة للاستغناء عنك أيضاً؟ فأنا لا أقول لك طلقني، ولكن أقول أريد أن أزوجك، وسأبقى معك أشاركك سعادتك وفرحتك.. قلت: هذا لا يمكن أن يحصل فليس هناك امرأة يمكن أن تساويك وتوازيك وتقف على درجتك، ثم من قال لك إني أريد الزواج؟ فهل سمعت طوال هذه السنوات كلمة صريحة أو

تلميحاً عن رغبتي في الزواج أو لمزاً منك بأنك أنت السبب في عدم الإنجاب؟ وما يدريني أن تكون العلة مني، فإذا تزوجت امرأة أخرى فربما جنيت عليها ووضعتها في مأزق.. هي في غنى عنه وأنا في غنى عنه أيضاً. فقالت: ألا تذكر حين ذهبنا إلى الطبيب المرة الثانية فقال: إن لدي عوالق قد تمنع من الحمل، فربما أنا السبب، واعلم أنك إن رزقت الولد فهو ابن لي وفرحتك فرحتي. قلت: أولاً أنا لست مقتنعاً بالموضوع فما فكرت يوماً أن أجعل لك ضَرَّة أو أشرك امرأة أخرى في حبي لك، وما أظن أن امرأة تستطيع أن تشاطرك حبي.

ثم إني لا أريد أن أكون ظالماً فالإسلام يفرض علي العدل وأنا لا أستطيعه، لأنك قد ملكت علي نفسي كما ذكرت لك ولا يمكن أن أجعل الزوجة الأخرى في مقامك.. قالت: إن العدل إنما يكون في المعاملة وليس في الحب... ألم يقل الرسول عليه الصلاة «اللهم إربي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك». وأنا لا أرضى لك أن تكون ظالماً.

وهكذا ومنذ عشرين يوماً ونحن في كل ليلة في نقاش دائم ومستمر، ولست أدري ماذا أصنع؟ فأشر علي وانصحني...

قلت: في الحقيقة القرار صعب، ولكن كما تقول إن زوجتك لا تزال منذ عشرين يوماً وهي تصر عليك أن تتزوج، ومعنى هذا أن لديها قناعة، وأنت لست أول رجل يتزوج أكثر من مرة واحدة، وهي ليست أول امرأة يتزوج زوجها امرأة ثانية، والحياة كما ترى سارية ولم تتوقف. والمشكلة الحقيقية اليوم هي في تغير مفاهيم الناس والمجتمع،

فـفي المـاضي كـان زواج الـرجل من واحـدة واثنتين وثلاث وأربع أمـراً طبيعياً، فإن الأمة المسلمة أمة مجاهدة ورجالها معرضون للاستشهاد، ولو اكتفى الرجل بامرأة واحدة لأصبح في المجتمع الكثير من الأرامل، وذلك يؤدي إلى اندثار المجتمع وزواله. ولكن المجتمع الإسلامي اليوم ومنذ أكثر من خمسين سنة تقاعس عن الجهاد، وأخلد إلى الأرض؛ لذلك مال الناس إلى الاكتفاء بزوجة واحدة، وأكد ذلك ظروف الحياة القاسية التي خيمت على العائلات والأسر، وزاد الأمر سوءاً وانتشاراً استيراد كثير من الأفكار من البلاد الغربية التي تنص زواج الرجل من امرأة واحدة مدى الحياة، فلا طلاق ولا زوجة ثانية، وقد تأثر الناس بهذه الأفكار لأن بعض الذين استلموا دفة التدريس والتوجيه في جامعاتنا ومدارسنا وصحافتنا ممن تخرج في الغرب وعاد بأفكاره ينشرها. ولا تنس أثر الاستعمار الغربي في نشر هذه الأفكار ورعايتها. ورأيي يا صاحبي أن زواجك ليس مشكلة إذا كانت زوجتك راغبة في ذلك وراضية به. ثم لنفرض أنك لم تحصل على نتائج إيجابية من حيث استقرار الحياة والهدوء ومجيء الولد، فباب الطلاق واسع ولست أول رجل يطلق..

قال: يا صاحبي أنا أخالفك النظر فأنا أرى أن الزواج يقوم ليبقى ويدوم، وإنه لمن الظلم للمرأة أن يسارع الإنسان في طلاقها. صحيح إن الله قد أباح الطلاق، ولكنه قدم له الوعظ والهجر والضرب والتحكيم بين الزوجين والرسول عليه الصلاة والسلام بين أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق.

قلت: كلامك صحيح، وأنا لا أقصد أن تبادر إلى الطلاق، إنما بينت أن نهاية الطريق غير المريح هو الطلاق والأمر بعد ذلك لك بإذن الله. ففكر بالموضوع واتخذ قرارك ولو كنت مكانك لقبلت العرض.

ثم افترقنا وقد حالت شواغلي دون لقائه، حتى إذا التقينا بادرني بالتحية ثم قال: أين أنت يا رجل؟! ما هي أخبارك؟ قلت: بل أنت ما هي أخبارك؟ وضحك الرجل وقال: ها ها.. لقد فاتك الشيء الكثير فقد أطعت زوجتي وتزوجت فتاة صغيرة حلوة جميلة لطيفة، غرَّةً خبرتها قليلة فليست بذات مكر أو دهاء فهي كالنعجة المنقادة، لا أقول الكلمة مرتين فأنا أقول وهي تنفذ. والحقيقة أن زوجتي الأولى قد أحسنت الاختيار.

قلت: أراك متحمساً ولم تكن كذلك. فضحك وقال: اذهب يا صديقي وتزوج فمن ذاق عرف.

قلت: لا بأس ولكن قل لي كيف أقنعتك زوجك؟ قال: لقد ذكرت لك طرفاً من النقاش الذي كان يدور بيننا وظللت ممانعاً حتى وصلنا أخيراً إلى اتفاق وهو أن أقبل الزواج شريطة أن تكون لها الكلمة الأولى في البيت وتكون كلمتها سارية على الزوجة الجديدة، ولها عليها السلطة.. وأن تكون الزوجة الثانية بمثابة البنت لها، وقد أوكلت لها أمر تطليقها إن رأت ذلك.

قلت: قد حصل ما حصل فألف بركة ورزقك الله البنين والبنات.

خفت لقاءاتنا بعد ذلك، فقد جذب البيت والزوجة الجديدة صاحبي فلا يكاد يخرج من الدار لبعض شأنه حتى يعود إليه فقد أحسست بالتصاقه بالدار فخففت من الاتصال به. حتى كان يوم جاءني فيه مبتهجاً وقال: بارك لي فزوجتي الأولى حامل.

قلت: بارك الله لك وأتم الله الأمر بالخير وأقر الله عينك بولد يكون صالحاً باراً بك...

وولدت الزوجة وجاءت بغلام وكاد الرجل يفقد عقله من الفرح، ويوم العقيقة كان الطفل الرضيع لا يفارق يده...

وحملت الزوجة مرة أخرى وولدت غلاماً آخر فزادت فرحة صاحبي وأصبح تعلقه بالطفلين ستارة على عينيه، فقد أهمل زوجته الأولى ولم يعد يقدرها حق قدرها، فقد كانت هي التي تأمر وتنهى وترتب وتدبر، فإذا بالزوجة الجديدة تشب عن الطوق وتحاول أن تفرض وجودها غير مبالية بضرتها، والرجل مفتون بولديه مسحور بهما يرى سعادة الدنيا في النظر إلى وجهيهما ومداعبتهما.

كل هذا والزوجة الأولى صابرة ونيران الغيرة تحرق قلبها. وكانت تلفت نظر زوجها أحياناً إلى بعض أخطاء الزوجة أو تصرفاتها السيئة، ولكنها كانت في واد والزوج في وادٍ آخر.. وطفح الكيل لديها، وغادر النوم عينيها وأصابها الأرق والسهاد. فبعد أن كانت كل شيء أصبحت هملاً، وبعد أن كان الحب الرباط المتين الذي يجمع بينها وبين زوجها صار هذا الرباط لضرتها..

وفي أحد الأيام جاءني صاحبي حزيناً متجهماً كسيراً. وما أن جلس حتى بدأ يشكو لي سوء حاله فقال: لقد كنت أحسب حساباً لكل شيء إلا ما أعانيه. فمنذ عدة أيام فاجأتني زوجتي الأولى بطلب هز كياني وقلب أوضاعي كلها.

قلت: خير إن شاء الله.. فلقد شغلت بالي.. قال: لقد طلبت مني أن أطلقها.. وقلت بلا وعي: ماذا تقول؟ قال نعم يا صاحبي لقد طلبت مني الطلاق، وقد رحت أذكرها بأيامنا الخوالي، وحبي لها وبسعادتنا المزدوجة وبروعة الحياة التي كنا نحياها، وبالكلمات الحلوة التي كانت تقولها لي وأقولها لها.. وسألتها أين ذهب كل هذا، وهل كانت حياتنا السابقة مسرحية يمثل كل منّا على الآخر..؟.. وأجابت: لا.. فتأكد أن حبك مغروز في قلبي وسيبقى حتى أموت، وستبقى الأيام التي عشناها معاً ذكريات سعيدة أفيئ إليها كلما أنست حزناً أو وحشة.

قلت: ولم إذن تطلبين الطلاق؟ قالت: إن أعز شيء لدي كرامتي ولا أتهاون بها بأي شكل من الأشكال وأنت أهنتني.. وصِحْت: أنا؟!! قالت: نعم فقد أهملتني وكأني لست لك زوجة، والتفت إلى زوجتك وكأني لست موجودة، ونسيت أقوالك السابقة. لقد بدأت أحس بنار الأسى والحزن تحرق قلبي وحاولت أن أصطبر حتى فرغ صبري، ووجدت أني سأموت كمداً وقهراً لذا رأيت أن أفر بنفسي بدلاً من حياة البؤس التي أحياها.

قلت: أتسمين حياتنا حياة بؤس وأنا الذي أعتقد أنه ما من شخصين سعدا في حياتهما كما سعدنا؟ وقاطعتني قائلة: كما سعدنا لا كما نعيش اليوم. وأنا لا أريد أن أجادلك وأنت تعرف أني

لا أحب الجدال... لقد فكرت كثيراً فوجدت أنه لم يعد لي مكان في هذا البيت، ولا أريد أن أنغضَ حياتك، قلت: لن أطلقك حتى أموت فأنت لي الدنيا وبهجتها وروعتها. قالت: كان ذلك قديماً.. ثم خرجت من الغرفة.

كان التوتر قد بلغ مني مبلغه فآثرت أن أبقى مكاني خشية أن يتطور الأمر أكثر.

وظللنا أسبوعاً ونحن على هذا المنوال وأخيراً قالت لي: اسمع أنا جادة فيما أقول إما أن تطلقني وإما أن أقتل نفسي، فخير لي أن أموت مرة واحدة من أن أموت مرات عديدة. وقلت: لن أطلقك فإذا هي تركض نحو الشرفة تريد أن تلقي بنفسها منها، وركضت وراءها وأدركتها قبل أن تلقي نفسها، فإذا هي تتهاوى بين يدي مغمى عليها.

وحين صحت نظرت إلي ثم قالت: هل ستبقى دائماً إلى جانبي؟ لن تستطيع وأقسم بالله أني سأنتحر عند أول فرصة إن لم تطلقني.

وأسقط في يدي وخشيت عليها أن تموت منتحرة فتدخل النار فطلقتها، وتمنيت لو أني أموت بعد ذلك. ومضت ومضت روحي معها، وها أنذا الآن كما تراني حزيناً منكسراً.

قلت: هون عليك فإن جرحك لا يزال جديداً وسيندمل شيئاً فشيئاً وستنساها.. قال: أنسى نفسي ولا أنساها..!!

تكررت لقاءاتنا بعد ذلك وفي كل مرة كنت أجد مسحة الحزن تعلو وجهه، وكأنه ليس الرجل الذي أعرفه والذي كان ضاحكاً بشوشاً صاحب طرفة ودعابة.

obeikandl.com

وجاءني يوماً والدموع في عينيه، وسألته عن شأنه فقال: إنها زوجتي.. وظننت بزوجته الجديدة شراً فقلت له: ما بها؟.. قال: لقد تزوجت.. وأدركت أنه يتحدث عن زوجه الأولى. وقلت: وماذا في ذلك هل تريد منها أن تبقى مطلقة تعاني الوحدة؟ انسها يا رجل وتمن لها الخير والسعادة إن كنت تحبها وقال: لا أستطيع لا أستطيع.. قلت: كفى فقد مضى ما مضى.

ودارت الأيام وكانت لقاءاتنا قليلة فقد انصرف الرجل إلى أرضه والعناية بها ورعاية ولديه إلى أن لقيته يوماً فسألته عن حاله فراح يلعن نفسه إذ وافق على الزواج من ثانية. وقلت لِمَ؟ أحمد الله أن وهبك الأولاد وحقق لك أحلامك.. وقال: أنت لا تعرف شيئاً لقد كانت زوجتي الأولى نظيفة مرتبة تعنى بأمور البيت تحسن الطهي.. قد تقول إني أبالغ ولكن صدقني إني لم أذق طعاماً طيباً في بيتي، وإذا دخلت البيت وجدت الفوضى تعم فيه، والقذارة منتشرة في أرجاء الدار وإذا عاتبتها قالت: ماذا أصنع لك إنهم أولادك يفسدون كل شيء؟ وحسن مني أني أستطيع أن أطبخ لكم الطعام. تصوّر إن أرضي واسعة وفيها من أصناف الخضار والفاكهة، وأنا أشتهي أن آكل من نتاج أرضي فأحضر مثلاً بعض الخيار، وأعطيها الكيس لتصفه في الثلاجة... ولكني بعد أربعة أيام أجد كيس الخضار مركوناً في زاوية المطبخ فإذا فتحته وجدت الخيار فاسداً. وحين أسألها لِمَ لم تضعه في الثلاجة؟ تجيب عندنا كثير، وأقول ولم لم تخلليها؟ تقول: ما عندي وقت وأنا تعبة ثم إني لا أحب المخلل.

وجاءني مرة ووجهه يتلون بين الفرحة والأسى فمرة يبدو مسروراً ومرة حزيناً وقال: عندي خبر مدهش لا يخطر على بال. قلت: أثرتني وشوقتني فماذا هناك؟! قال: مطلقتي كانت حاملاً وولدت منذ يومين غلاماً ذكراً.. وشهقت من الدهشة وقلت غير معقول!!! سبحان الله تعيشان معاً ربع قرن ولا ترزق منها الولد وترزق من غيرها وهي لا ترزق منك وترزق من غيرك. يا الله إن الله حكيم، يدبر الأمور كما يشاء، ولن نستطيع أن نعرف من حكمة الله في خلقه إلا بما يسمح لنا. وتتالت الأحداث سراعاً فقد لقيت صاحبي منفرد الأسارير مسروراً وقبل أن أسأله عن سر سروره فاجأني بقوله: لقد طلقتها. وسألته: طلقت من؟ قال: طلقت أم الأولاد وستقول لِمَ وسأقول لك، لقد حضرت اليوم إلى البيت من المزرعة منهكاً وحين دخلت المطبخ وجدت البراد منكفئاً على وجهه والطعام متناثر على الأرض، وطاش صوابي واعتراني غضب شديد، وصحت عليها أسألها: لِمَ الثلاجة على وجهها؟ فأجابت بكل برود إن الأولاد كانوا يتأرجحون على الباب فوقع البراد. فوجدتني بلا وعي ألطمها، وأنهال عليها ضرباً وأطلقها.. أتعلم أني أحسست بالراحة بعد ذلك فقد كنت مغيظاً إلى أبعد الحدود وها قد انطفأت نار غيظي.

وقفت حائراً لا أدري ماذا أقول، وترددت قليلاً ثم قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.. ما قدر الله كان وما شاء فعل.

لا أريد أن أطيل أكثَر في الحديث عن صاحبي فقد تفرغ لتربية ولديه والعناية بهما ورفض فكرة الزواج ثانية. ولكنه حين علم أن زوج مطلقته قد توفي تجدد الأمل في نفسه وثار الحنين في نفسه ومضى

يعرض على مطلقته الزواج منها وأن تعود إلى مملكتها واعداً إياها برعاية ولدها كما يرعى ولديه.. ولكن عبثاً كان يسعى.. فقد ظلت ترفض بكل شمم وتصميم، لقد رجع الحنين إليه ولكنها خنقت الحنين وفضلت أن تحيا لولدها.

obeikandl.com

obeikandl.com

حفنة من تراب

حين اقترب حامد من داره عائداً من المدرسة، سمع صراخاً ورأى جمعاً من الناس قد تجمهر على الباب، فركض مسرعاً، فإذا هو أمام عدد من المستوطنين اليهود بأسلحتهم ومعهم عدد من الجنود بخوذهم وبنادقهم، ورأى أباه يشير بيديه، وقد أحمر وجهه وجحظت عيناه وبرزت عروق رقبته وارتفع صوته، وهو يقول: لن نخرج من دارنا مهما كانت الأسباب، ولن نتنازل عنها ولو طلعت أرواحنا... هذه دارنا التي عشنا فيها، ألا تفهمون؟ وهذه أرضنا التي نعيش منها.. والله لا تأخذونها إلا على جثتي، افعلوا ما تشاؤون.. أرضنا عرضنا، ونحن لا نفرط بأعراضنا..

واندفع أحد المستوطنين نحو والد حامد يريد الاعتداء عليه، ولكن الحاضرين حالوا دونه.. ومضى الجند والمهاجرون من اليهود والواقفون يشتمونهم ويدعون عليهم أن ينالهم من الله ما يستحقون.

كانت عينا والد حامد حمراوتين تقدحان شرراً ووجهه مختنقاً أحمر، والغضب مرتسماً على وجهه وعقاله مع كوفيته قد ارتدا إلى نصف رأسه، ويداه ترتجفان وصوته أجش جهورياً، وهو يقول: أولاد الخنازير والقرود ألن يتركونا بحالنا.. يخرب بيتهم والله بقينا عائشين على أعصابنا.. وجاؤوا يكملون ضيقنا بغلاظتهم.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. عفنا حياتنا من هؤلاء الأنجاس.

وقال أحد الجيران: طَوِّلْ بالك يا أبا حامد.. من أجل صحتك، الغضب لا يلائمك، طَوِّل بالك وصَلِّ على النبي. وتمتم الحاضرون: صلى الله على محمد.. وعلّق أحد الحاضرين: لا تلوموه والله الحق معه.. هلكوا وجودنا بذهابهم وإيابهم، في البداية كانوا يعرضون علينا أن نبيعهم ديارنا وأراضينا وعادوا علينا مرة ثانية وثالثة فرفضنا فقالوا لنا مهددين: سنأخذها إن رضيتم وإن غضبتم ومهما كانت الظروف، وإننا سنبني مكانها بيوتاً لنا ومستعمرات، فخير لكم أن تأخذوا ثمنها، من أن نأخذها بالمجان، ورغماً عن أنوفكم وبالقوة.

كانت عينا حامد مسمرتين على أبيه، ورأى أن أباه قد زاد انفعاله وغضبه فأهوى على كفيه يقبلهما ويرجوه أن يهدأ مخافة أن تصيبه جلطة أو يناله فالج ودعاه إلى دخول الدار والاستراحة.. وبدأ الجيران بالانصراف وبقي اثنان، أرضهما ملاصقة لأرض أبي حامد، واقفين وفتح أبو حامد باب الدار وقال: تفضلوا.. فدخل الرجلان إلى غرفة بسيطة الأثاث نظيفة مرتبة لكنها تنبئ أن صاحبها مستور الحال.

جلس الرجلان قبالة أبي حامد وهما ينظران إلى صدره وهو يعلو و يهبط.. بينما ركع حامد أمام أبيه يمسك كفيه ويقبلهما ويرجوه أن يهدأ.. وقال أحد الجيران: لست وحدك يا أبا حامد في هذه المشكلة فأنا أيضاً جاؤوني عدة مرات يطلبون الأرض والبيت، وعلمت أنهم قد طافوا على المنطقة كلها، وهم يريدون أن يبنوا على المنطقة مستعمرة ليسكنوا فيها.

قـاتلهم الله يخـرجـوننا من بيـوتنا ليـسكنوا هم وجـمـاعـتـهم من المشردين.

صـديقنا أبو أحـمـد في الحـارة الثـانيـة خـاف من بطشـهم وهم لا يرحمون فوافق على بيعهم أرضه، دفعوا له عربوناً زهيداً فلما أخلى لهم الأرض والدار وجاء يطلب منهم بقية الثمن اشرعوا بنادقهم في وجهه وقالو: إن بقية الثمن رصاصة فهل تريد أن تأخذها في صدرك أم في معدتك.. وهكذا سلبوه أرضه من غير مقابل.. وأكثر ظني أننا لو أجبناهم إلى بيع الأراضي و البيوت فلن يكون الثمن إلا الغدر و الخيانة و الرصاص.. وصاح أبو حامد: لا والله.. لا يمكن أن أبيعهم ذرة تراب وخير لي أن يأخذوها رغماً عني بلا مقابل من أن أبيع و أمرغ شرفي بالعار.. وقال الجار الأخر: لقد قالوا: إنهم سيهدمونها فوق رؤوسنا وأولادنا فهل تظن أنهم يجرؤون على ذلك ؟

قال أبو حامد: ومن يمنعهم؟ إذ إن القوة بأيديهم ونحن متفرقون لا حـول لنا ولا قـوة، إنهم يريدون أن يجـعلوا منا لاجـئين في ديارنا، تصوروا صاحب البيت لاجئ إلى خيمة والغاضب يملك الدار. وقال والد حامد بعد أن سكت برهة: ماذا أريد من هذه الحياة وقد ذقت حلوها ومرها وما بقي لي فيها أرب، والله الموت شهيداً أفضل مئات المرات من هذه الحياة ولنا أسوة بمن سبقنا من الشهداء؟. أما أن يأخذوها برضانا فلا.

وقال حامد: والدي أرجوك اهدأ ويكفيك ما فيك من الغضب فإنه لا يناسبك وأنت أصلاً مريض.

وسكت الجميع وساد سكون طويل كان يقطعه أحياناً سعال بسيط ينبعث من حنجرة أبي حامد.. وفجأة صاح: يا أم حامد اصنعي شاياً فقد قصرنا مع ضيوفنا وعاد إلى مجلسه، والتفت إلى ولده حامد وقال: يا بني هذه الأرض هي أمنا و أبونا وأهلنا، وأنا أشم فيها رائحة أبي وأمي، فعرقهما مجبول بترابها فإياك أن تفرط بذرة منها، يجب أن تبقى في ضميرك وعقلك وتحت ناظريك.. إننا يا حامد قد توارثنا هذه الأرض أباً عن جد منذ زمن بعيد وقرون طويلة وجاء هؤلاء الغاصبون فاستلبوها منا بالقوة أو بالحيلة وجعلوا منا لاجئين داخل بلدنا وفي البلدان المجاورة، ونظر حامد إلى وجه أبيه فرأى الدموع تترقرق في عينيه فقال: يا والدي اطمئن فإن كلماتك مزروعة في قلبي، وثق أني مستعد للتضحية بنفسي وما أملك من أجل هذه الأرض فهي أرض إسلامية و لا يجوز للمسلم أن يفرط بأرضه.

وقال أبو حامد: اسمع يا بني، المرء لا يستطيع أن يحارب عدوه إن لم يعرفه، ومشكلتنا نحن جميعاً مع اليهود واحدة، لقد جاؤوا يريدون الأرض فارغة من أهلها فعرضوا على أصحابها بيعها فلما رفضوا أغروهم فلما صمموا هددوهم بالقتل و الإخراج بالقوة ثم نفذوا ذلك بمذابح فردية وجماعية.

وسأل حامد؟ من أين جاء هؤلاء فاليوم أحد الطلاب سأل الأستاذ هذا السؤال فقال: سأجيبك في فرصة أخرى.

وقال والد حامد: إن هؤلاء ليسوا شعباً ولا أمة ولا قبيلة، بل هم خليط من أمم شتى وشعوب مختلفة منهم الروسي والفرنسي والروماني والهنغاري. لا يجمع بينهم نسب ولا دم وليس لهم وطن واحد فقد توزعوا في الأرض وتشتتوا في الآفاق.. وتدخل أحد الحاضرين فقال بلغة هادئة ونفس واثقة: يا بني هؤلاء ليسوا شعباً، هذه الأرض ليست لهم، فقد سكنها أجدادنا العرب الكنعانيون منذ زمن سحيق واليهود سكنوا في هذه البلاد زمناً بسيطاً وجاء بختنصر فحاربهم وهزمهم وشرد بهم الأرض، وهدم معابدهم، فكانوا كالرماد الذي نثرته الرياح على مدى الأفق ولم يعد لهم أي كيان أو شعب، وأصبحوا أفراداً من شعوب وأمم شتى، وحين قامت الكيانات السياسية في أوربة كان منهم الروسي والروماني والفرنسي وحين جرت الهجرة إلى أمريكا هاجر قسم منهم إليها واستطاعوا بما يملكون من مال أن يمسكوا بزمام السلطة فيها إلى جانب ما يغرون الآخرين به من نساء وفواحش ومفاسد، ولقد تمكنوا أن يفرضوا أخلاقهم الدنيئة، فنشروا الموبقات والجرائم حيثما حلوا.

ودخلت أم حامد تحمل أكواب الشاي، فقدمتها إلى الحاضرين ووقفت جانب ثم قالت: من أين جاءنا هؤلاء الظالمون؟ ألا يكفي ما صنعوه بهذا البلد وأهله منذ عام 48؟ ما صدقنا على أنفسنا أننا وقفنا على أرجلنا حتى جاؤوا يسلبون ثمرة أتعابنا، انظروا إلى هذه العجوز لقد هده التعب وأنا والله لم يبقَ بي حول ولا قوة، وهذا المسكين لا يزال طالباً في المدرسة.. فماذا نفعل لو سلبونا ما نملك؟ ومن أين نعيش؟

وقال أحد الجيران: يا أبا حامد وَكَّلِ اللهِ، أنت تعلمنا الصبر فهدئ نفسك، وعسى أن يكف الله عنا أذى هؤلاء الخبثاء، وأنا والله محتار ماذا أصنع نسأل الله العافية..

واستأذن الرجلان وخرجا، ونظر حامد إلى أبيه فأحس أن الرجل يحمل على ظهره هموماً كثيرة وأن في نفسه آلاماً دفينة عميقة تركت آثارها على وجهه خطوطاً عريضة ومحت من فمه الابتسامة وأورثت ظهره انحناء واضحاً، فشعر بالأسى يأكل قلبه، والحزن يسيطر عليه والضيق يلم به فخرج من الدار ومشى إلى إحدى شجرات الزيتون فقعد تحتها وراح ينظر إلى أغصانها وثمارها وسرحت نفسه فيما هم فيه فماذا يمكنه أن يصنع لو عاد هؤلاء الأوغاد إلى الدار يريدون الأرض والبيت؟ كيف يمكنه أن يترك الدار وقد ولد فيها وعاش في جنباتها وله في كل ركن وزاوية منها أنفاس حلوة وذكريات رائعة وأحلام حسان؟ كيف يمكنه أن يترك هذه الأرض التي درج على ترابها ولعب بطينها وحجارتها وأكل من زرعها وثمرها وعملت فيها يداه الصغيرتان؟. شجيرات الزيتون هذه إخوته التوائم لقد زرعها أبوه في السنة التي ولد فيها وتعهدها مع أمه بالعناية، فكان والشجيرات موضع رعايتها فهم جميعاً أبناء أسرة واحدة لقد جلب لهذه الشجرات الماء وكافأته بحباتها الخضراء والسوداء يتغذى بها.. يا الله هل يمكن أن يقطع الإنسان صلته بأخيه؟ وهل يفرط المرء بأخويه؟. لا، لا يمكن أن يكون هذا ويجب أن يكون لنا موقف من هذا الأمر.

عاشت عائلة حامد ثلاثة أيام والوجوم يسيطر على البيت، فالوجوه كئيبة والكلام قليل والحزن يملأ الجو وأبو حامد لا يزال يقرأ ويدعو ويرفع يديه إلى السماء. أما حامد فكان ساهماً سارحاً يفكر فيما تحبئه الأيام من أحداث، فاليهود معرفون بغدرهم وخياناتهم وأنهم لا يرحمون طفلاً، ولا يخجلون من امرأة فكم من مرة اعتدوا على الأطفال الصغار والنساء وحاولوا كسر عظام الأولاد بالعصي، فهم لا يتورعون عن إيقاع شتى أنواع الأذى بالرجال والنساء والأولاد والمنازل والمحلات.

كان حامد يحاول أن يسري عن أبيه حزنه، فكان يكثر من إلقاء الأسئلة ليشغله بالجواب عن التفكير بالواقع وسأل حامد أباه: كيف دخل اليهود فلسطين وكيف أقاموا لأنفسهم حكومة ودولة؟ وقال والد حامد: لقد حاول اليهود أن يشتروا القدس من الدولة العثمانية التي كانت تحكمها، فرفض السلطان عبد الحميد واستطاع اليهود أن يؤثروا على بريطانيا فأصدر وزير خارجيتها بلفور وعداً بإقامة دولة اليهود في فلسطين، وتمكنت بريطانيا من الاستيلاء على فلسطين، ففتحت أبواب الهجرة لليهود وحمتهم وسربت إليهم الأسلحة، فكونوا العصابات وشنوا الحملات على الأحياء والقرى العربية، فأحرقوا المزارع وقتلوا الرجال والأطفال والنساء وسرقوا المحلات ونسفوا البيوت وحين أعلنت بريطانيا فجأة أنها ستنسحب من فلسطين كانت قد هيأت اليهود ليستلموا زمام الأمور وليطردوا العرب من بيوتهم وممتلكاتهم فهاجم اليهود المدن، وارتكبوا المذابح التي تقشعر منها الأبدان، فدبّ الذعر في قلوب العرب العزل من السلاح وخافوا على

نسائهم وأولادهم فلجؤوا إلى البلاد العربية المجاورة وتدخلت بعض الجيوش العربية منتصرة لعرب فلسطين ولكنها فشلت في تحقيق ما تريد لقلة السلاح لديهم ولكون بلادها مستعمرة من قبل بريطانيا أو فرنسا، فلم يكن لها حرية التسلح وانتهت المأساة ببداية مأساة جديدة إذ قامت لليهود دولة وعادت الجيوش العربية تجر أذيال الخيبة وفرغ نصف فلسطين من أهله العرب وعاش الباقون تحت ستار الذل والمهانة والفقر وعاش الذين هاجروا تحت الخيام وفي المخيمات في أسوا حال وتمسكنا يا بني ببيوتنا وأراضينا وفضلنا أن نموت عليها وندفن فيها بدلاً من أن نموت مهاجرين أذلاء، وعانينا من الظلم ما لا يحتمل، وها هو الظلم الآن يعود من جديد، إنهم يعيدون مذبحتي دير ياسين وكفر قاسم لإخرا جنا من بيوتنا.

وسأل حامد والغيظ يكاد يخنقه، ونار مشتعلة تتلظى داخل صدره، والحقد بركان في قلبه، والرغبة في الأخذ بالثأر واستعادة الحقوق تفور في فؤاده: وما مذبحتا دير ياسين وكفر قاسم؟.. وأجاب أبو حامد: إن حديث هاتين المذبحتين يشكل لي انزعاجاً وأسى كبيراً لذلك سأختصر وأقول: إن اليهود دخلوا قرية دير ياسين فجمعوا سكانها أمام المسجد ثم أطلقوا عليهم النار فأردوهم قتلى، وكانت هذه المذبحة الحادثة المفجعة التي ثبتت دولة اليهود لأنها بثت الرعب في قلوب العرب العزل فتركوا ديارهم وبيوتهم ولجؤوا إلى البلاد المجاورة، وجاءت مذبحة كفر قاسم مؤيدة لمذبحة دير ياسين، كان عمال كفر قاسم عائدين من العمل إلى بيوتهم، فتصدى لهم اليهود وقتلوهم.

طافت في ذهن حامد أفكار كثيرة، كانت كلها تصب في بحيرة واحدة، لا يستعاد الحق إلا بالجهاد والقوة ولا بد من الانتقام.

وتوجس حامد شراً خفياً، فإن هؤلاء ما كانوا ليكفوا عن الشر والأذى وهم قد هددوا بالعودة والإخراج و لا ريب سيعودون، وجاء يوم الجمعة، وراح حامد مع أبيه يستعدان للذهاب إلى المسجد حين سمع حامد ضوضاء تشبه ضوضاء الدبابات وهرع إلى النافذة فرأى ما هاله وأرعبه، لقد كان هناك جرار ضخم يقلع شجر الزيتون من الأرض فصاح حامد فزعاً: إنهم يقلعون شجر الزيتون يا أبي.

وركض حامد وأمه وأبوه إلى خارج البيت، فرؤوا منظراً لن ينسوه أبداً: إنه جرار ضخم يحيط به مجموعة من المستوطنين اليهود المسلحين والجنود بالعتاد والجرار قد اقتلع بعض الشجر واتجه إلى شجرة قريبة من البيت يريد أن يقلعها فجن جنون العائلة وهرعوا نحو الجرار وتصدى لهم المستوطنون والجنود يريدون منعهم ولكن والدة حامد كانت قد وصلت إلى الجرار وتسلقته ثم تشبثت بالسائق وجذبته بقوة حتى سقط على الأرض وقام وهو يتلوى من الألم ويشتم ويسب ثم رفع يده وصفع أم حامد على وجهها فجن جنون أبي حامد وصاح أتضرب النساء يا حقير؟ ثم أهوى بيده إلى صدر السائق فلببه ورفع قبضة يده يريد أن يضرب بها على وجهه، لكنه فجأة سقط على الأرض يتلوى، والدماء تسيل من ظهره، فإن أحد المستوطنين قد بارده بإطلاق رصاصة عليه..

جرى ما جرى بسرعة كبيرة وطاش عقل حامد واندفع نحو المستوطن يريد أن ينتقم منه، لكن الجنود الكثر أمسكوا به ومنعوه من الحركة بينما سارعت أم حامد إلى زوجها تحضنه وتبكي.. وأسرع أحد الجيران فأحضر سيارة إسعاف.

نُقلَ أبو حامد إلى المستشفى وكان وضعه حرجاً، وبذل الأطباء العرب جهودهم محاولين إنقاذه، ورابطت أم حامد مع ولدها أمام غرفة العناية المركزة لكي يطمئنا على أبي حامد، ولكن أمر الله نُفذ واستشهد أبو حامد وعادت الزوجة مع ولدها إلى الدار لتجدها مهدمة فوق قطع الأثاث المحطمة، وشجرات الزيتون قد قلعت جميعها وسوراً من الأسلاك الشائكة يحيط بالأرض والجرار يحفر، والسيارات تجلب أدوات البناء وخطر للأم أن تتقدم، لكنها خشيت على ولدها لقد أصبحت أم حامد مع ولدها شريدين، لا دار ولا مأوى ولا مصدر رزق.. لقد أصبحا لاجئين بجانب بيتهما .

ووجد حامد نفسه مع أمه في خيمة صغيرة إلى جانب عشرات الخيام التي تضم أمثاله ممن سُلبت منهم ديارهم وأراضيهم وكانت الرياح تلعب بالخيمة وتكاد تقلعها والأمطار تبللها وتخترقها إلى من تحتها، ليس فيها ماء ولا كهرباء ولا دفء، يكاد بردها يقص العظام من شدته.. وكانت الحسرة تملأ نفس حامد، فأين تلك الدار الجميلة التي كانت تؤويه؟ لعلها أجمل الديار في الدنيا لأنها داره، ولكنها ويا للأسف أصبحت ركاماً.. وكانت أم حامد تتسلل في الليل إلى أنقاض دارها فتستخلص منها بعض المتاع من بين الأنقاض، وتعود به إلى

الخيمة وتحاول إصلاحه. لكن البرد كان شديداً فالشتاء قاس عنيف، والخيمة لا ترد البرد، ولم يكن هناك وسيلة للدفء إلا أن يندس الإنسان في فراشه، ويغمر نفسه بتلك الأسمال البالية التي سُميت تجاوزاً أغطية.

لم يكن بمقدور حامد أن يتابع دراسته، فإن عليه واجباً نحو أمه ونفسه، وعليه أن يتكفل بالمصروف، فإن أباه لم يخلف شيئاً، وشجرات الزيتون التي كانت أحد سبل العيش ذهبت بلا عودة، فليس أمامه إلا العمل، وترك المدرسة. وفاتح أمه بذلك فرفضت في البدء، لكنها وافقت حين تذكرت أن آخر قطعة ذهبية كانت في يدها قد باعتها منذ أسبوع.

وتقلبت الأيام بحامد فتارة يجد عملاً وتارة يبقى عاطلاً، ويوماً يشبع وآخر يجوع، وما كان هذا يؤلمه أو يحزنه، بل كان حزنه الأكبر ينبع من اضطراره إلى العمل لدى هؤلاء الغاصبين في البناء حيناً، أو في بساتين الزيتون المسلوبة حيناً آخر، وكان كثيراً ما يسأل نفسه كيف أعمل لدى هؤلاء اليهود وهم أعدائي الذين سلبوني أرضي وداري وحياة أبي؟! أو ليس من الواجب أن نبتعد عن العمل لدى هؤلاء الظالمين فنجعل أعمالهم تتوقف، وتجارتهم تكسد، وزراعتهم تبور، واقتصادهم يتحطم.. نعم هذا الذي يجب أن يكون فلِمَ أعمل أنا وهؤلاء الآلاف من الفلسطينيين لديهم؟ وقال حامد لأمه: أريد أن أترك العمل.. وسألته أمه عن السبب فشرح لها وجهة نظره.

فقالت الأم: يا بني لن تجد في الوجود كله أشد ظلماً ووحشية من اليهود، لقد رأيتَهم كيف قتلوا أباك وضربوا أمك وسلبوا دارك ومزرعتك وجعلوك مشرداً تحت الخيام؟ وليس هذا خاصاً بك، بل هو بلاء ينال جميع الفلسطينيين، فقد سيطروا على أسباب الحياة والرزق ووسائل الإنتاج والزراعة والتصنيع وفرضوا الحجر على المدن فلا يدخل من الرزق والطعام إلا ما يسمحون به ولا يخرج إلا ما يسمحون به، ومصادر المياه أصبحت تحت سيطرتهم والكهرباء تحت يدهم والعلم لهم ولأولادهم ولنا البطالة والجهالة، فنحن لا نأكل إلا إذا سمحوا لنا ونجوع إذا أرادوا لنا الجوع، ونشرب إن أعطونا نزراً قليلاً من مائنا الذي صرفوه ونقلوه إلى مستوطناتهم ومستعمراتهم ونعطش إن منعوه عنا. لم يتركوا لنا فرصة لتكون لنا مشاريعنا الصناعية والزراعية المستقلة والتي تؤمن لنا القوة و الاستقرار، فاضطررنا إلى العمل عندهم من أجل أن نبقى أحياء، والله تعالى أباح لحم الميتة للمضطر ونحن مضطرون، لكن الواجب الأساسي علينا أن نعمل لنستعيد حقوقنا ونستغني عنهم.

كانت الأم تتكلم وحامد يحس وكأن مرجلاً يغلي في صدره من الغيظ والحنق والغضب، وحين انتهت الأم من الكلام، كان حامد قد وصل إلى قرار تأصل في نفسه، لا بد من الانتقام وأن الوقت قد حان لذلك.

أخذ حامد يعد نفسه للانتقام ويعد العدة لذلك، وأخذ كلما سنحت له الفرصة يدور حول المستعمرة المقامة على أرضه وأرض جيرانه يتفحصها، ويتحرى مداخلها ومخارجها، وينظر السبيل التي قد تصل

به إلى البيت البديل لبيته، وساعده في ذلك أنه عمل في بناء البيوت لدى اليهود فهو على معرفة بتصاميم البيوت ومخططاتها، حتى أيقن أخيراً أنه أصبح على علم بكل صغيرة وكبيرة تساعده في انتقامه...

وفي ليلة من أوائل الشهر حيث القمر هلال وضوؤه خافت، كان حامد يتسلل من بين أسلاك الشريط الشائك منبطحاً على صدره، زاحفاً على يديه ورجليه، وقد أمسك قارورة كبيرة مليئة ببترول شديد الاشتعال، حتى إذا وصل إلى الدار التي أقيمت على أنقاض بيته، التصق بالجدار ثم تحول إلى خلف الدار، ووصل إلى الباب فعالجه بدفعة قوية فانفتح ودخل حامد الدار مطمئناً، فقد كان يراقبها هذه الليلة ورأى سكانها الغاصبين يغادرونها لأمر يريدونه، وأسرع فأزال غطاء الإناء ثم راح يصب البترول على الأثاث في مختلف الغرف، وأخرج من جيبه علبة الثقاب وأمسك أحد عيدانها يريد أن يشعله، فأحس حركة مفاجئة فاختبأ خلف المقعد وراح يستطلع مكان الحركة، ثم خرج ضاحكاً، لقد كانت الحركة من سرير طفل صغير، وظن أن هناك هرة فيه وحين نظر هجرت الابتسامة شفتيه، لقد كان طفلاً صغيراً نائماً خَلَّفه أهل البيت، ريثما يعودون، وحار حامد في أمره فقد مضى عليه أربع سنوات ينتظر هذه اللحظة، فكم من ليلة قضاها ساهراً يفكر فيها، وكم طاف بالمنطقة يستطلع خفايا أبنيتها، والآن وبعد أن تأكد من خلو الدار، وليس بينه وبين إحراقها إلا أن يلقي عود الثقاب يجد هذا الطفل...!! أيحرق الدار والطفل فيها، وينفذ انتقامه ويشفي غليله؟ ألم يقتل أهل هذا الطفل أباه من غير ذنب اقترفه،

وغصبوا أرضه وداره؟!! وجاءه الجواب من داخل نفسه: لا إن الإسلام لم يبح قتل الأطفال والنساء، والرسول عليه الصلاة والسلام حين أجلى يهود خيبر قتل الرجال، ولكنه استحيا الذرية والنساء، والإسلام قد أمر برد العدوان بمثله، والذي قُتل هو أبوه، وهذا الطفل لم يصنع شيئاً وازدادت حيرة حامد، وكان عليه أن يقرر ويحزم أمره بسرعة، ورفع رأسه نحو السماء وقال: اللهم إنك تعلم أني قد انتظرت هذه الفرصة زمناً، والآن إرضاء لك سأعف عن حرق الدار والطفل، ومضى نحو الباب عائداً إلى خيمته.

لم ينم حامد تلك الليلة فقد تقاذفته الأفكار والخواطر، وكان بين عاطفتين، فتارة يكاد يحكم على نفسه بأنه أخطأ في عدم إحراق البيت، فهو قد أمضى أربع سنوات ينتظر هذه اللحظة، وما وصل إليها إلا بعد تعب وصبر ومخاطرة فكيف تراجع هكذا ببساطة؟ وتارة يقول لا أنا لم أخطئ، صحيح أنني انتظرت وتعبت وسهرت وخاطرت، ولكن القصد الانتقام بحرق الدار وقتل من قتل أبي، وليس مشروعاً لنا أن نحرق الناس بالنار، فذلك لله تعالى وحده وقد جعله عقاباً للكفار والعصاة يوم القيامة، ولقد عاتب الله أحد أنبيائه لأنه أحرق قرية للنمل، فكيف أبيح لنفسي إحراق هذا الطفل؟ صحيح أنني لو أحرقته لتركت في قلوب أهله ناراً تتقد من الحزن، وحسرة لا تزول كما هي الحسرة في قلبي على مقتل أبي ولكن لو صنعت ذلك فما الفرق بيني وبين هؤلاء اليهود الذين يقتلون النساء والأطفال والرجال العزل؟ وأنا إذا عففت عن إشعال عود الثقاب وإحراق البيت خوفاً من الله فإني لأرجو من الله بذلك أن أنال ثأري بقتل من قتل أبي.

كانت الأيام تمضي بطيئة، فالبطش والهوان والقتل وسلب الأراضي والبيوت يتكرر في كل يوم، وفي كل يوم شهيد وجريح وأطفال ينالون اليتم ونساء تفقد أزواجها وأولادها. وكان هَمُّ حامد الأول الانتقام لكنه لا يملك سلاحاً ولا يتقن استعماله، وهدته جهوده إلى التعرف على كتائب الجهاد والمقاومة، فتدرب لديها وبذل أقصى جهده في التدريب حتى أصبح رامياً ما هراً.

وطرح حامد أمر انتقامه على قيادته، فاقترحت عليه أن يقوم بعض عناصرها بذلك، ولكن حامداً أبى، وقال: أنا أريد أن أشفي جرحي وأبرد نار قلبي، أريد أن أرى قاتل أبي أمامي صريعاً وبيدي، وقال أحد القادة: إن مثل هذه العمليات غالباً ما تنتهي باستشهاد منفذها ويفضل فيها دائماً الاقتحام بالمتفجرات التي تنفجر بحاملها وتودي إلى خسائر بالآخرين كبيرة، وقال حامد: أما الخسائر من أبناء القردة هؤلاء فسأحققها، ولكنني أريد أن أرى قاتل أبي قتيلاً أمامي، وأنا لست أهتم إن أدركت ثأري أعشت أم مت، بل إن أقصى أماني أن أنال الشهادة في سبيل الله، وأن أنال من أعداء الله هؤلاء.

كانت فرصة حامد أعظم من أن يتصورها وهو يدخل الخيمة وفي يده محفظة فيها بندقية آلية مفككة، وكمية من الرصاص، وسارع إلى إخفائها.

ولاحظت أم حامد أن سلوك ولدها قد أصبح أكثر جدية، وأنه يكثر من الجلوس إليها، وتقبيل يدها، وطلب الدعاء منها ومسامحته إن كان قد قصر معها، فإذا جاء الليل قام يصلي لله ويكثر الدعاء والتضرع،

وكان حامد يغتنم الفرصة كلما آنس من نفسه همِة أو فراغاً ليؤكد معلوماته عن الأرض والدار من أين يدخل إليها ومن يخرج وإذا كانت هناك سهرات أو اجتماعات وهل هناك حراسة، خاصة وكم تبعد الحراسة العامة عن الدار؟

لاحظ حامد أن الدار يؤمها مجموعة من اليهود في نهاية يوم السبت فيمضون الوقت يأكلون ويشربون ويضحكون ويعربدون ويرقصون، ولاحظ أن الحراسة تكون ضعيفة لانضمام بعض الحراس إلى تلك السهرات.

وحل اليوم الذي انتظره حامد أربع سنوات ونصف، وانتظر حتى نامت أمه، فأخرج البندقية وجمع أجزاءها، وخرج من الخيمة يتفحص الطريق وعينه على الدار، وكان يرى من خلال الضوء المتناثر شخوص اليهود القادمين إلى دارهم المغصوبة، وكان يسمع أصواتهم وصدى ضجيجهم، والتفت حامد إلى داخل الخيمة يمتع ناظريه بوجه أمه، وانحدرت دمعة من عينه على خده، وألقى نظرة أخيرة على الخيمة والمخيم فأحس بقوة غير عادية تنتابه، ثم توجه نحو السياج.

كان حامد قد أحصى أربعة عشر شخصاً دخلوا المنزل فرفع رأسه نحو السماء وقال: يا الله!! لله الحمد، العدد جيد وأسألك يا رب أن تعينني على القضاء عليهم وأن تسدد خطاي، وتجعل عملي خالصاً لوجهك، وإن كنت قد كتبت علي الموت فاجعلها شهادة في سبيلك.

لم يجد حامد صعوبة في الوصول إلى البستان فقد كانت الطريق قصيرة ومظلمة، وكان قلبه يدق بقوة، وأنفاسه تتلاحق بسرعة وسأل نفسه: أخائف أنت يا حامد؟ لا.. لا فهذه الأمور مما لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيها، وكان صوت الموسيقى يزداد ارتفاعاً كلما اقترب من البيت، وراح يدقق النظر من النافذة فرأى الراقصين يتمايلون يمنة ويسرة وأبصر قاتل أبيه فانتفض جسمه، وأحس بنار تجتاحه وبقطرات من العرق تتجمع على جبهته ثم تسيل من جانب عينه، وقال: الحمد لله، الخنزير موجود وقد قرب الفرج.

وتسلل حامد من خلال السياج، وداست قدمه التراب فقبض قبضة بيده وراح يشمها، ويقول: يا مرحبا يا أرض الآباء والأجداد لقد طال شوقي إليك، وما أحلى رائحتك وما أزكاها، إنها تنعش نفسي وتوقظ مشاعري. واتكأ حامد على مرفقيه وركبتيه واحتضن البندقية بين يديه وأحس ببرودة الأرض فقال: ما أحلاك وما أروعك إنك تضمينني إليك كما تضم الأم ولدها إلى صدرها ثم بدأ يزحف نحو البيت.

كانت حواس حامد متيقظة متحفزة، وعيناه تجولان يمنة ويسرة خشية أن يفاجئه أحد الحراس، وكان يحاول أن يستكشف ما وراء النافذة، ولكن الصورة كانت تغيب كلما اقترب حتى إذا أصبح جانب جدار البيت أحس بالراحة في نفسه، وهدأ اضطرابه، لقد قرب وقت الانتقام وتطهير الأرض الطيبة من هؤلاء الخنازير الغاصبين الظالمين.

وألصق جسده بالحائط وراح يمشي محتكاً به، حتى وصل إلى باب الدار الخلفي، وتذكر كيف فتحه منذ بضعة أشهر حين كان يريد حرق الدار، فحمد الله أن مكنه الآن من هؤلاء القتلة الغاصبين، ووضع حد حربة البندقية بين البابين وضغطها فانفتح الباب، وانتظر قليلاً ثم قام من الأرض واخترق الباب، فإذا هو في المطبخ، وقد نضدت فيه أطباق الطعام المختلفة وقال في نفسه: نحن نحرم من الخبز ويموت أبناؤنا من الجوع، وهم يتمتعون بشتى أنواع الطعام اللذيذ، والله لأحرمنكم منه، واتجه نحو الصالة الكبيرة المملوءة بالمدعوين وقرأ قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ ثم دفع الباب بقوة شديدة فانفتح على مصراعيه محدثاً صوتاً عنيفاً، وذهل الحاضرون من منظر هذا الرجل الذي يمسك بندقية بيده ويوجهها نحوهم يمنة ويسرة وشلت المفاجأة قدراتهم فجمدوا في مكانهم، وأصبحت وجوههم صفراء باهتة وشفاههم بيضاء، وألجم الخوف النساء وأصبحن كالمحكوم بالإعدام ينتظر إصدار الحكم عليه.

وصاح حامد بصوت عالٍ وعنيف! ليبقَ كل واحد منكم مكانه وليلزم الهدوء وإلا فإن نصيبه سيكون القتل، والتفت إلى قاتل أبيه وقال: أتذكر منذ أربع سنين كيف قتلت صاحب هذه الأرض والدار التي فوقها ظلماً؟ واستوليت على أرضه وهدمت بيته، أتذكر؟ وسقط الرجل من خوفه على ركبتيه وقال: أرجوك اصفح عني وارحمني قال حامد: إني سأرحمك لأن حياتك تجلب عليك مزيداً من الآثام والجرائم وستزيد من عذابك، وضغط بإصبعه على الزناد فانطلقت

الرصاصات منه لتخترق الجسد الجاثي على الأرض وليخر صريعاً، وانتهز أحدهم فرصة مقتل صاحبه فمد يده إلى حزامه يحول فك غلاف مسدسه، ولكن بندقية حامد كانت أسرع من يده فصبت في جسده رصاصات صرعته، وقال حامد: والله يا أبناء الخنازير إنكم شر من عرفت البشرية من طغاة وقتلة وظلمة ودوائكم هو هذا، ووجه بندقيته نحوهم وراح الرصاص يلعلع، والجثث تتساقط على الأرض، كانت أصوات الرصاص قد وصلت إلى أسماع الحراس، فسارعوا نحو الدار وقال حامد للنساء المذعورات: لا تخفن فلن أؤذي واحدة منكن، فنحن لا نقتل النساء ولسنا مثلكم مجرمين. وفتحت إحدى النساء الباب الأصيل وقذفت نفسها خارج الصالة ولحظ حامد الحراس وهم يركضون باتجاه الدار فقال في نفسه: الحمد لله هذه خنازير أخرى أريح البشرية منها، وأحس حامد كأن سيخاً من الحديد محمى اخترق ظهره وخرج من صدره، وسمع صوت طلقة والتفت وراءه فرأى أحد الحراس واقفاً أمام باب المطبخ وبيده بندقية فعاجله برصاصة أردته قتيلاً ورغم جرح حامد فإنه أحس بالراحة تغمره، وبالسعادة تملأ قلبه وأدار نظره في الغرفة وتذكر يوم كانت دارهم عامرة إذ كانت هنا لهم غرفة نشأ فيها. خطر لحامد أن يفر من الباب الخلفي، لكنه تذكر قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ فقال: سمعاً وطاعة يا رب لن نوليهم الأدبار، ويا مرحبا بالشهادة، ثم اندفع إلى خارج البيت، وهو يطلق الرصاص على الحراس، وكلما رأى واحداً منهم سقط صريعاً زاد حماسه، لكنه أحس

أن قِواه تضعف، ورأى قطرات حمراء تتساقط من جسده على يده والأرض، وبدأت غشاوة تسيطر على عينيه فلم يعد يرى، وركع على ركبتيه ثم مال إلى الأمام، ووقع وجهه على الأرض ومد يده مع النفس الأخير من حياته فوق التراب.

حين وُضِعَ حامد على النعش لاحظ المشيعون أن يده مقبوضة، وكم كانت دهشتهم كبيرة حين وجدوا يده مملوءة بحفنة من تراب.

obeikandl.com

ألحان الصمت

همس أحد المدرسين:

يا حبيبي ها قد نفذت الوزارة عهدها وبدأت بتأنيث التعليم.. تفضل ها قد أرسلوا مُدَرِّسَةً إلى مدرستنا

وأضاف آخر: كيف ستدخل هذه المرأة على هؤلاء الطلاب والعفاريت وكيف ستستطيع ضبطهم؟. نحن الرجال عاجزون عن ذلك..!! وقال ثالث: طلاب مراهقون ومُدَرِّسة!! هذه مهزلة.. وقلت: لا تتعجبوا غداً يذوب الثلج ويظهر المرج.

تلك كانت تعليقات المدرسين حين رأوا مُدَرِّسة تدخل غرفتهم، وهي تسير على استحياء، وتمضي إلى مقعد فارغ مُنْزَوٍ فتقعد فيه، والارتباك بادٍ عليها. كانت امرأة نَعَناعاً جميلة الوجه، خضراء العينين، تلبس ملابس محتشمة وتستر شعرها بقطعة من القماش خضراء تنسجم مع لون عينيها، وغلالة خفيفة من العرق تغطي وجهها، راحت تمسحها بلطف بمنديل ورقي ملون وقد وضعت إلى جانبها محفظة جلدية متوسطة الحجم، لعلها كانت تحتفظ فيها بأوراقها.

كانت المرة الأولى التي تدخل فيها مُدَرِّسَة مدرسة لتعليم طلاب المرحلة الثانوية.. وكنا نظن القضية إشاعة كغيرها من الإشاعات وأن الوزارة لن تجرؤ على جعل التعليم مختلطاً، ولا سيما في الأحياء الشعبية المحافظة. لذا كانت دهشتنا كبيرة...

لم يُشح أحد من المدرسين عينه عن هذه المرأة يتفحصها، وربما تخيل كيف سيتعامل معها في مستقبل الأيام، أو تخيل كيف سيكون استقبال الطلاب لها، وفيهم من فيهم من نفسيات مختلفة، وتربية متباينة. وقطع السكوت صوت أحد الزملاء وهو يرحب بالزميلة واعداً أن المدرسة ستكون دارها الثانية، وأن المدرسين سيكونون أخوة، وإنها ستلقى كل عناية وستلقى من الجميع حسن الرعاية. وردت على خجل بكلمة: شكراً كثيراً.

لست أدري أي شعور تملكني وأنا أراها تتجه إلى أحد الصفوف، لكني أجزم أنها كانت مشاعر مختلفة أوضح ما فيها الشفقة على هذه المسكينة في مثل هذه الصفوف ومع مثل هؤلاء الطلاب، ووددت لو أنه يسمح لي أن أدخل معها، فلا أسمح لطالب أن يمس شعورها أو يعلق بكلمة على وجودها.

وحين حان الانصراف كان المدرسون يتباطؤون حول باب المدرسة ليسأل أحدهم الآخر عن أخبار الوافدة الجديدة، وكيف كان استقبال الطلاب لها، وهل حدثت مشاكل بينها وبين الطلاب أزعجتها؟. وقد خاب توقع الجميع.. إذ استطاعت المدرسة الجديدة أن تثبت وجودها وأن تبدأ بأداء واجبها. وعلّق أحدهم: نعم يا حبيبي هؤلاء الطلاب رجال ويشعرون نحو المرأة بالحنان، لذلك عاملوها بلطف وتعاونوا معها.. وضحك الآخرون حين قال زميل آخر: إذا كان الأمر كما تقول فليتني كنت امرأة حتى أتخلص من غلاظة هؤلاء الأوباش.

obeikandl.com

سارت الأيام هادئة رتيبة ليس فيها ما يزعج أو يثير الدهشة، وخفت تعليقات الزملاء حتى زالت وانقلبت إلى نكت وأضاحيك يتلقاها الجميع بالسرور، والمدرسة الجديدة ضعف اعتزالها وبدأت الاختلاط بالمدرسين ومشاركتهم الأحاديث والمناقشات والتعليقات حتى باتت واحداً منهم، ولم يعد من فرق بينها وبين الآخرين إلا الشعور بأنها أنثى وأنهم رجال.

وكان لزاماً علي الاحتكاك بهذه الزميلة أكثر من غيري، فقد صدرت تعليمات الوزارة تقضي على المدرس الأقدم تدريساً والأرفع شهادة أن يكون مسؤولاً عن تدريس مادّة اختصاصية في المدرسة وأن يكون له الإشراف على المدرسين الآخرين، فيتابع نشاطهم العلمي والتعليمي وينظر في دفاتر تحضيرهم للدروس ويدرس أسئلة المذكرات والامتحانات، ويناقش زملاءه فيها، ويشرف على سير الامتحانات. وقضي علي أن أكون المسؤول عن مادة اللغة العربية فحملت المسؤولية ضاحكاً وجاداً فما أنا إلا واحد من بضعة إخوة مدرسين، وهذه المسؤولية ليست امتيازاً ولا سبيلاً للرفعة وإنما هي طريق لحسن سير العمل وزيادة الصلة بالزملاء.. وأطلق الزملاء علي لقب: «شيخ الكار» وكلمة الكار كلمة فارسية تعني الصنعة والعمل.. وكانوا كثيراً ما يتفاكهون حين أقبل عليهم، فيقول أحدهم: انتبهوا جاءكم شيخ الكار فأضحك ويضحكون.

مع مرور الزمن وكثرة اللقاء ووفرة الحديث كان الحديث يأخذ أطرافاً خاصة لا علاقة لها بمهنة التعليم، فعرفت عني أني متزوج وأب لستة أولاد، وأنني أعيش سعيداً مع زوجتي وأولادي وأن همي

رضا ربي وإسعاد أهلي، وعرفت عنها أنها واحدة من ست بنات عشن في بيت أب محب، ولكنه حريص على الدنيا يفهمها بميزان الدراهم والدنانير، وأنها الوحيدة التي أتمت دراستها ونالت الإجازة في الآداب. بينما تزوج أخواتها قبل إنهاء الدراسة الإعدادية أو الثانوية بفعل تأثير أمها وضغطها على أبيها، فقد كان الرجل يرجو أن تدرس بناته جميعاً وأن يكون منهن الطبيبات والصيدليات وذوات الشأن لذا كان يرفض تزويجهن بحجة إتمام دراستهن ولكن أمها كانت تعي أن المرأة امرأة وأن طريقها تنتهي في كونها زوجة وأماً للأولاد، ومهما علت ثقافتها أو زاد علمها أو كثر مالها، وهذه ملكات الدنيا ما تزوجن من جوع أو فقر، أو هوان أو ضعة، وإنما تزوجن لأن هذه سنة الله في خلقه، الرجل يتمم المرأة والمرأة تتمم الرجل، وهذا اسمه رجل وهذه اسمها امرأة، والحياة لا تكون إلا بهما وباجتماعهما. فكانت أمها إذا ما أتى خاطب صالح لابنتها وأراد أبوها أن يرده، تصدت للأب واضطرته إلى القبول، وهكذا تزوجت أخواتها الخمس ورزقن الأولاد ويعشن في سعادة، أما هي فظلت تحت رحمة أبيها بعد وفاة والدتها وكان كثيراً ما ينفخ في سرّها ويرمي في أذنها أنها يجب أن تتعلم وأن تنال الشهادات العالية وأن هذا سيهيئ لها مستوى من الأزواج رفيعاً وحياة كريمة لائقة، ويمنحها مكانة مرموقة في المجتمع. وصَدَّقت البنت، فدرست ونالت شهادتها لكنها لم تحظ بزوجها، لأنه كلما جاءها خاطب رده أبوها بحجة أنه لا يليق بالمعلمة المثقفة.

ومات الأب وقد تجاوزت السابعة والعشرين وأحجم الرجال عنها يسحرهم من هُنَّ أصغرُ منها سناً، وأكمل جمالاً.. واضطرت أن تحيا وحيدة في دارٍ جيدة ورثتها عن أبيها، قد أُثثت بأحسن الرياش.. لكنها كانت هادئة من صوت الزوج وصياح الأولاد..

كانت كل واحدة من أخواتها مشغولة بزوجها وأولادها، وقد حاولت في البداية أن تبقى علاقاتها بأخواتها متصلة، لكن هذه العلاقات وهنت، فلكل من أخواتها همومها التي قد تصرفها عنها أو تملأ وقتها، وهي لا تريد أن تكون عبء على أحد، ولا عالة على إنسان، وراتبها مع ما خلف لها أبوها بحمد الله يكفي ويزيد، وبيتها واسع ومريح، ولم يكن لها إلا أن تجعل نفسها رهينة البيت الموحش حين تنتهي من عملها تحاول أن تشغل نفسها بالقراءة أو التحضير لدروسها أو إصلاح أوراق المذاكرات والامتحانات، أو الطبخ.. إلخ لكن شيئاً واحداً كانت تحس فقده، هو من يملأ عليها حياتها؟

حين كنت أسمع منها أحياناً بعض حديثها عن نفسها، كنت آسى لها وأتألم لألمها. وكنت أقول: هذه امرأة لها من أمور الدنيا ما تتمناه الكثيرات أو تتمنى بعضه، ولكن ذلك لم يمنحها السعادة، فضرها أبوها من حيث أراد نفعها

وجنى عليها العلم فجعلها نسخة من كتاب متحرك إذا تحركت فيه المشاعر حاول أن يقضي عليها، لكني كنت أحس شيئاً خفياً يعتمل في داخلها، وقد حاولت مراراً أن أتعرف هذا الشيء فلم أفلح.

لست أنكر أنني كنت أشعر ببعض الراحة والبهجة حين كنت ألتقيها، وكنت أرى على وجهها ابتسامة وفرحاً، وفي عينيها بريقاً ساحراً يزيد من رونقه خضرة عينيها، لكنني كنت أخجل من نفسي حين أندفع في الحديث وأستمرؤه، ولا سيما إن كان في غير أمور العمل والتدريس. فأنا امرؤ متزوج وليس لي إلا الكلمة الضرورية والوفاء لنفسي ولزوجتي ولخلقي، وديني يقتضي مني ذلك، وكنت أندم إذا خلوت وحيد، وأقرر أن أتوقف ولكن ما إن يكون لقاء جديد حتى تعود الأمور إلى سابق عهدها.

سألت نفسي يوماً: أتحبها؟! وكان سؤالاً صعباً لم أستطع الجزم في الإجابة عنه.. مرة أقول: إني معجب بها وأخرى أقول إني أستلطفها، وثالثة أقول إنها جديرة بالمصادقة المحترمة.. إجابات متنوعة لم يكن لها معنى إلا تبرير اللقاء بها والحديث إليها.. وكان أعجب ما خطر لي أنها زميلة يجب أن أقوم بواجب الزمالة نحوها من الإيناس والمساعدة وكسر الوحدة. وهكذا كنت أعيش في دوامة من الاضطراب والقلق..

وكان يوم لست أنساه، كانت جالسة في غرفة المدرسين ساهمة، وكأنها غائبة عن المجلس لا تسمع ما يُقال فيه، ولا تشارك في الحديث. وكانت عيناها شاردتين لا تنظران إلى شيء، وهي تحرك رجلها بسرعة كبيرة تدل على القلق، وخطر لي أن أتقدم منها وأسألها ما الذي يزعجها؟ لكنني أحجمت خشية أمور كثيرة أقلها أن تعدني متدخلاً فيما لا يعنيني، وحين قرع الجرس واتجهنا نحو الصفوف، جمعنا المشى وألقيت التحية سائلاً كيف الحال؟ وقالت وكأنها تفكر في أمر هام: الحمد لله...

ووصلنا إلى آخر الممشى حيث يفترق إلى ممرين متعاكسين وكان على كل واحد منا أن يذهب في الممر المخالف. ولم يكن أحد من الزملاء موجوداً والتفتت إلي بصوت أجش جامد: أيمكن أن أراك على انفراد عند الانصراف؟! وأجبت ستجدينني عند الباب بإذن الله.

ترى أأستطيع أن أصف ما ألم بي من الخواطر والانفعالات وما طاف بذهني من الأفكار والافتراضات فيما تبقى من الدوام، وهل أستطيع أن أصف أي مدرس كنت؟! وهل كان لطلابي ملاحظات علي لأمور لم يعهدوها مني من قبل؟! لست أدري.

والتقينا على باب المدرسة، ووجدت حرجاً كبيراً أن أستمع إليها في الطريق، فاقترحت أن نحول إلى نادي نقابة المعلمين إذ كان قريباً. وحين قعدنا رأيت وجهها أصفر شاحباً، والاضطراب مسيطر عليها وتسعى في إخفائه، فخفق قلبي وأوجست شراً، ودفعت بوجهي إلى الأمام أريد أن أسمع ما ستتكلم به.

«إنها المرة الأولى والوحيدة يا أستاذ التي أجلس فيها إلى رجل أجنبي وأتحدث معه، كان ذلك بدء كلامها، وأرجو منك ألا تفهمني خطأ، ولقد كان من الممكن أن أجعل حديثي رسالة أخطها إليك أو أرسل وسيطاً يشرح ما أريد. ولكني وبعد أن عشت وحيدة خمس سنوات تعلمت أن كل أمر يجب أن أصنعه بنفسي وما أنا مقتنعة به يجب أن أعرضه بلساني وأن أدافع عنه بفكري. وإني محدثة إياك بحديث قد تعجب منه وتعجب أن يصدر مني، وقد ترفضه، لكني مضى علي أكثر من عشرة أيام وأنا أناقشه بعقلي وأفكر فيه وأدرس جوانبه، حتى وصلت إلى قرار وهو أن أتحدث إليك مباشرة».

قلت: تفضلي لقد شغلت بالي وشوقتني، واطمئني فإني سأتفهم كل كلمة ولن أفهمها خطأ.

قالت: لعلك تعلم أني أعيش وحيدة منذ خمس سنوات. قلت: نعم فلقد سمعت منك ذلك. قالت: هنا بداية الحديث ـ قلت: خير إن شاء الله.

قالت: لقد مضى علي خمس سنوات وحيدة في دار يتكرر منظر أثاثها، ولون جدرانها، ومقاطع بنائها، أحفظ فيها كل شيء وأعرف كل صغيرة وكبيرة من كثرة ما باشرتها، كل ما فيها لدي معروف مألوف إن لم أبالغ وأقل إنه مكروه يبعث الملالة والسأم في نفسي. فأنا انتهي من عملي وأدخل داري فأجد نفسي بين أربعة جدران صماء لا تسمع ولا تتكلم، توحي إليّ بالوحدة، وتبعث في قلبي الكآبة وتجعلني كالسجين في زنزانة منفردة، المناظر نفسها والمشاعر نفسها..!! طوفان من الأسى يملك علي فؤادي، وأنا أجد نفسي وحيدة لا أجد من أكلمه أو أسامره أو أحدثه.. أأتحدث إلى نفسي أم إلى الجدران؟! لا ريب سأكون آنذاك مجنونة، وأنا والحمد لله كاملة العقل سوية. فأفر إلى الصلاة وقراءة القرآن.. وأناجي الله أسأله المعونة.. ولكن هل يبقى الإنسان مصلياً طول الوقت؟ والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإنها إذا كلت عميت، فأعمد إلى الرائي «التلفزيون» أشاهد ما يعرض فأحس بالقرف والضيق.. برامج ومسلسلات تعيش في أذهان كاتبيها لا علاقة لها بحياتنا أو تفكيرنا أو سلوكنا أو عاداتنا، تفرض أموراً غريبة عنا، ومشاكل لا

نحياها ولا نعاني منها، فإن تحدثتْ عن التاريخ جاءت بالخيال أو شوهته فدنست روعته.. تخلط الحق بالباطل والواقع بالخرافة... حتى برامج الأطفال التي يجب أن تتسم بالصدق والواقعية واللطف والرقة تجدها قاسية عنيفة قائمة على الخداع والمكر والبعد عن الواقع، ولاسيما تلك الأفلام التي تعرض صور مخلوقات يقولون عنها إنها من الفضاء وهو بريء منها، تبعث الرعب في قلوب الأطفال والخوف في نفوسهم فإذا هم يخافون الظلام ويهربون من سررهم وغرفهم ويعامل بعضهم بعضاً بالقوة والعنف.

وأنثني إلى المكتبة فآخذ كتاباً أقرأ فيه وأحس بالسعادة ففي الكتب أروع ما أنتجته العقول وأحست به النفوس، ولكن إلى أي حد يصبر الإنسان على القراءة؟!.. قراءة في الصباح في المدرسة، وبعد الظهر في البيت.. مهما كان الأمر محبوباً إليك فإنك تمله.

قد أزور إحدى أخواتي، فأجد لديها التسلية والأنس لساعة أو أكثر، وقد أجدها مشغولة عني بزوجها وأولادها وبيتها فأنسحب خشية الإثقال عليها.. وأمضي في الشارع أشاهد واجهات المحلات وما يعرض فيها فأحس بالتعب وأعود إلى سجني الكبير.

لقد حاولت أن أتأقلم مع هذه الحياة وأن أتعودها، لكنني أفتقد من ثناياها السعادة وأحن إلى السرور وأشتاق إلى الكلمة الفكهة والنكتة الحلوة والضحكة الرنانة، الشيء الذي رأيتك بارعاً فيه واعذرني لقولي: فقد ملأت علينا حياتنا في المدرسة بالبهجة وأفواهنا بالبسمة وجعلتنا نحس أن هناك شيئاً حلواً في الحياة يمكن أن يتذوقه الإنسان وأن يسر به.

وأنا آسفة عليّ أن أعود إلى أصل حديثي.. فمنذ مدة وأنا ترد علي أفكار تسيطر علي وتجرني إلى مناقشتها وتحليلها، فقد سألت نفسي: لماذا لم يخلق الله آدم وحيداً ولِمَ اختار له قطعة منه فجعلها حواء؟. أليس لإرادة الله أن يجعل الانسجام بينهما والألفة والمحبة.. وأولادهما ألم يشيعوا البهجة والحبور في قلبيهما، فالله ما أراد للإنسان في هذا الكون أن يحيا وحيداً، بل أراد له أن يعيش مع الآخرين وأنزل إليه تشريعات تحدد العلاقة بينه وبين بني جنسه، وتحضه على حسن المعاملة مع الآخرين. أوَكانت تأتي هذه التشريعات لولا أن الله قضى على الإنسان أن يكون مع إخوته من بني البشر وابتلاه بحسن التصرف معهم.

كان حديثها مؤثراً في القلب محزناً، ولكنه كان ممتعاً، فقد رسمت هذه المرأة لنفسها صورة من أجمل الصور للمرأة الصابرة العفيفة الكادحة التي تعاني أقسى أنواع الشقاء وهي الوحدة، وتصبر عليها وربما لو كانت غيرها من النساء لكان لها صلات وصلات وعلاقات وعلاقات الله أعلم بها.. وازدادت مكانتها في نفسي وأردت أن أسري عنها، لكنها أتمت دون أن تترك لي فرصة في الحديث وقالت: إن الله قد أقام الدنيا كلها على نظام الأسرة، وجعل الرجل يميل إلى المرأة والمرأة تميل إلى الرجل وجعل حبالاً من الحنين والشوق والحب والرغبة والميل تتصل بينهما من غير أن يراها أحد.. ألا ترى أن الرجل والمرأة يكونان غريبين لا يعرف أحدهما الآخر، ويُعقَد بينهما فيقوم بينهما من أواصر الود والمحبة والإيثار ما لا يكون في الظروف

العادية، ويعيشان مسرورين سعيدين.. من يستطيع أن ينكر ذلك؟! لو ظلا كالغريبين ما قامت ولا دامت حياة بينهما ولانفرط عقد الأسرة من صباح الزواج.

إن هذا التآلف والود والمحبة هو الأساس الذي تقوم عليه الأسرة السعيدة، وهو الذي يبعث البهجة في القلوب والسرور في النفوس، وهو أمر لا أجده وأفتقده، فأحس الدنيا حبيسة عني أو أني حبيسة عنها. لا يغرنك أني أملك الدار والمتاع والدخل المحترم، إنه في مجموعه لا يساوي شيئاً في نفسي، لأنه لا يسعدني ولا يبهجني، فهو فاقد الحياة، وأنا روح وحياة، أحس وأتألم وأتحرك وأغضب وأفرح.

وأحسست أن صوتها قد تدرج واختلفت نبراته وكنت أحدق في غطاء المنضدة فرفعت وجهي فوقعت عيناي في عينيها الخضراوتين، وكانت مغرورقتين بدموع خفيفة، فهما كموج البحر الهادئ، ينساح على الشاطئ فيغسله ويجعله نظيفاً لماعاً، منظر كالسحر ما أظن أني رأيت عيناً جميلة معبرة كتلك التي أراها أمامي، وحرت في أمري ماذا أصنع؟ وقلت: إني أفهم مشاعرك كلها لا يغيب عني منها شيء وإن كنت تحدثينني الآن عنها فقد حدثت نفسي بها منذ أتيت المدرسة لا أقول، إنك كنت هماً لي، ولكن شأنك كان يراودني كلما خلوت إلى نفسي. كنت أفكر كيف تعيشين وكيف تمضين وقتك؟ ولكنني لم أكن أعلم أن ما أدركته كان أقل بكثير مما تعانين، ولست أدري كيف يمكن أن أساعدك!!

وحدقت وهي مدهوشة.. أنا لا أخفي أنها حين كانت تتحدث خطرت لي خواطر عديدة، ربما كان أحدها ما تريد، لكني لم أشأ أن أحدد الاتجاه في الحديث من جهة، وخشيت أن أكون قد فهمت خطأ فأحرجها وأحرج نفسي.

قالت: لولا أني متأكدة أنك تريد أن تساعدني وأنك قادر على ذلك وأن أمري يهمك ما فتحت لك قلبي، ولا حدثتك بأفكاري وخواطري، ولا أفضيت إليك بمشاعري وأحزاني.. فلقد رأيت فيك من أستطيع أن أصارحه الرأي، وأبثه ما أعاني وقد شدني إلى ذلك أنني في هذه الأشهر الماضية كنت أراقبك في عملك وصِلاتك مع الزملاء، وما وجدت منك تصرفاً جارحاً أو قبيحاً، بل على العكس من ذلك، كنت الإنسان العاقل المدرك الحكيم المتأني، حسن السلوك والمعاشرة، وأروع ما فيك ضحكتك التي لا تفارق ثغرك ونكتتك الحاضرة التي تفجر الضحكة من أعماق القلب من غير جرح ولا إساءة ولا انتقام أو انتقاص.. كنت أراك ولا أزال الرجل الباسم للحياة الذي يعرف كيف يتمتع بها وقد ملأ الأمل قلبه ونظر إلى المستقبل نظرة تفاؤل...

وقاطعتها قائلاً ضاحكاً: جزاك الله خيراً، ما وصفني أحد وصفك حتى أكاد أحب نفسي من حسن وصفك لي...

قالت: إني لأصدقك القول إني ما جاملتك في كلمة ولا كذبت في وصف وإن ما قلته لك كان أحساساً وشعوراً سيطر على نفسي قبل أن يكون كلاماً وحديثاً يصوغه عقلي.. وهل رأيت امرأة تتكلم من عقلها؟

كل النساء حديثهن من العواطف والمشاعر، وهذه ميزة المرأة التي جعلتها رائعة أخاذة إذ تأخذ الكلمة من فمك فتحيلها في قلبها وإحساسها دفئاً وحناناً وبسمة أو غضباً ونكداً وبكاءً.. متى كانت المرأة فيلسوفاً؟! إنها معلمة الفلاسفة كيف يحبون ويكرهون ويفكرون ويقبلون ويرفضون، وما رأيك أني اجتمع لي في حديثي عن ذاتي وعنك دفق العاطفة واختلاج الإحساس واتجاه التفكير وقرار العقل.

وكدت أصرخ وأصيح: أية امرأة هذه..؟! ومن هذا الناقد الذي لم يصنفها في قائمة الأدباء الأوائل، لقد سحرتني يا هذه، فما عدت أدري كيف أتصرف؟ أأضحك أم أغني، أم أتحدث أم أحاول الفلسفة؟! كل ذلك عَنَّ لي، ولكني تماسكت ونظرت في عينيها وهما أجمل ما فيها، وتصنعت الهدوء وقلت: لقد أغرقتني مديحاً حتى شكَّكْتني بنفسي، فكفاني ما ذكرت وقولي لي بماذا أستطيع أن أخدمك؟!

زالت النضارة من وجهها وصار أصفرَ باهتاً وبان عليه الحزم والجد وقالت: يا أستاذ إني سأعرض عليك أمراً ما صنعته أنثى قبلي وإني لأرجو أن تعلم أني جادة فيما أقول، فإن وافقك الأمر تابعنا حديثنا وإن لم يوافقك افترقنا وكأن كلاماً لم يكن بيننا.

وخفق قلبي وكادت يداي ترتجفان وقلت: تفضلي ونظرت إليها فإذا هي قد نكست رأسها وجعلت تنظر في ستارة المائدة، ثم قالت بجملة قوية وعنيفة ما عرفتها من قبل: هل تتزوجني يا أستاذ؟.

إني لأعترف أني لا أستطيع أن أصف ما ألم بي من العواطف والانفعالات وما طاف بي من الخواطر، وأيَّ إنسان كنت إذن ما كان قد خطر لي من بعض الخواطر كان صحيحاً، ولكنني ما قدرت أنها ستفاجئني بطلبها هكذا. وابتسمت وشددت من عزيمتي وقلت: ولكني رجل متزوج ولي ستة أولاد.. قالت: أعلم ذلك ولأنك متزوج أنا أريدك. قلت: كيف ذلك؟ فإني ما فهمت ما تقصدين!. قالت: يا أستاذ إن رجلاً يبقى متزوجاً مدة طويلة وينجب ستة أطفال وتراه ضاحكاً ينظر إلى الحياة بعين الأمل، ولا تسمع منه كلمة تأفف من حياته ولا نقد لأسرته وعائلته هو رجل عظيم من الرجال، فهو يقدر المرأة وحياة الأسرة والحياة الزوجية ويعطيها حقها، وليس امرأً طائشاً أو عديم المسؤولية.

قلت: وأضيف إلى وصفك أني أحب زوجتي وأحترمها وأحب أولادي وأحرص عليهم ولا أريد أن أطلق زوجتي ولا أن أشتت أسرتي.

قالت: ومن قال لك طلق زوجتك؟ لو قلت لي ذلك لسحبت عَرْضي وغيرت رأيي.

قلت: هل ترضين أن تكوني ضَرَّةً؟ والعرب تقول: إن الضرة من الضر... قالت: ولِمَ لا تقول؟ إن معنى الضرة الهزال والضعف وإن المرأة الضرة بحاجة إلى من يرعاها بسبب ضعفها؟!

قالت: ومتى كانت نظرة المجتمع هي الصحيحة دائماً؟. إن النظرة الصحيحة هي التي يقررها الله تعالى ويشرحها الرسول عليه الصلاة والسلام. ألم يشرع الله الزواج بأكثر من امرأة وقال

﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباعٌ**﴾، لقد فهم بعض المفسرون الأمر على الإباحة ولكن آخرين فهموه على الوجوب، ثم ألم يتزوج الرسول عليه الصلاة والسلام أكثر من واحدة؟ وكذلك الصحابة والتابعون، وظل الزواج المتعدد معروفاً في مجتمعنا حتى جاءتنا أفكار الغرب تنادي بتحرير المرأة ومساواة المرأة، وتهاجم الطلاق والتعدد للزوجات، وحاولت أن تكرس فينا أفكار النصارى في الزواج بواحدة جهاراً، واتخاذ العديد من الخليلات سراً، فلا يباح الطلاق ولكن يباح الزنى ولا يباح التعدد ولكن يباح الهوى والسير على نهج الشيطان ولست أشرح أو أكرر فإنك تعلم هذه الأمور أكثر مني. إن المجتمع الإسلامي مجتمع جهاد ونشر للدعوة وأفراده معرضون للشهادة والقتل، فهو بحاجة إلى رفدٍ دائم من المقاتلين، ولا معنى أن تبقى امرأة في المجتمع الإسلامي بدون زواج.. ألم تكن المرأة تترمل باستشهاد زوجها فلا تكاد تقضي مدة العدة حتى تكون قد تزوجت، ولا تذهب بعيداً إن أجدادنا الذين يفصلنا عنهم آباؤنا فقط قد تزوجوا أكثر من واحدة، ولا تزال كثيراً من البلاد الإسلامية يتزوج فيها الرجل أكثر من امرأة ولا أحد ينكر.

قلت: ولكن المجتمع عندنا الآن يستهجن الزواج بأكثر من واحدة.. وقالت: جميلة منك كلمة الآن.. فإن هذا الاستهجان لم يكن عند آبائنا المسلمين لأنهم كانوا على نهج الإسلام، فلما انتشرت الأفكار المستوردة تغيرت نظرة كثير من الناس وزاد الأمر سوءاً التكاليف والنفقات المادية التي أصبح يتطلبها الزواج وتأسيس أسرة جديدة.

قلت: وكذلك بعرضك هذا تريدين أن تشاطري زوجتي سعادتها؟..
قالت: أما أني سأشاطرها فهذا صحيح أما سعادتها فلا... فأنا سأشاطرها مسؤولياتها نحوك، وأخفف عنها عبء العناية بك... أنا لن أسلبها سعادتها بك، وإن أنت حرمتها من السعادة فذلك لستُ سببه أنا وأنت فعلتَه مع أن الله قد أمرك بالعدل..إن حياة الرجل لا تضيق عن زوجتين، والعدل في المجتمع أن تتساوى النساء في تحقيق وجودهن، فلماذا نقبل للزوجة الأولى أن تكون امرأة وزوجة وأماً وصاحبة منزل ومسؤولة عن أسرة وأولاد؟ وننكر على الزوجة الثانية ذلك ونريد أن نحرمها من أنوثتها وحقها في أن تتمتع بهذه الأنوثة فتكون زوجة صاحبة مسؤولية نحو زوجها وأولادها، لماذا نريد منها أن تبقى وحيدة تعيسة في المجتمع؟ كما أنا الآن ونرفض أن تكون عضواً نافعاً في المجتمع، ترعى أسرة وتربي أولاداً وتنشِّئ علماء وأطباء وعاملين، وتبذل حنانها وعطفها وهما أعظم ما في المرأة لغيرها. هل القضية قضية سباق؟ المرأة التي تسبق فتتزوج وتغلق على زوجها الباب فلا تبقه لأخرى، ولماذا نُفَهِم المرأة الأولى أن المرأة الثانية جاءت تسلبها زوجها وبيتها وسعادتها؟. وقد تقول: إن الحق على الأزواج فهم كثيراً ما ينحازون ويميلون إلى المرأة الجديدة ويظلمون الزوجة الأولى فيهملونها ويقصرون في حقها.. وأقول لك: هذا صحيح تماماً، ولكني أريد أن أخلي المرأة من المسؤولية فكثيراً ما تظن إحدى الزوجتين أن مهمتها في الحياة هي الإساءة إلى ضرتها والنيل منها، من غير ذنب اقترفته ودفع زوجها إلى تطليقها.

ثم قل لي.. لو كان لك أخت وتقدم رجل للزواج منها على أن تكون المرأة الثانية وقد كاد يفوتها قطار الزواج وهي تتوق أن تحقق ذاتها ووجودها كامرأة وأم.. أكنت ترفض الموافقة على زواجها وتتركها نهباً للوحدة والتعاسة وتلاعب الأهواء والعواطف؟ حتى لا تكون امرأة ثانية.. ما الذي جنته المرأة الثانية حتى تحرم من حقيقة المرأة؟ قلت: بالطبع إنه أفضل بكثير أن تكون الزوجة الرابعة وليس الثانية من أن تكون عرضة للأهواء. ولكن هل فكرت كيف ستكون علاقتك بزوجتي وأولادي؟ قالت: طبعاً لقد ذكرت لك أني ظللت عشرة أيام وأنا أفكر في هذا الأمر.. ولا أريد أن أمنيك الأماني كما أني لا أريد أن أكذب، فإن أسوأ ما في الأمر أن أترك لها مملكتها وألا أتدخل بها وأكتفي بمسؤولياتي ولا أذكرها بسوء.. ولكن الأمر ليس الذي أريد.. فإني أريد لي أختاً كبيرة تمنحني حنانها وتقدم لي نصيحتها، وأفوز بحبها وحب أولادها، وأرجو الله أن أنجح فنكون طرفين لمعادلة واحدة حلها يكمن في كلمة السعادة. ثم أن القضية بأكملها في يدك فالله أعطاك حق الطلاق، ولا ريب أنك حين ترى حيفاً أو ظلماً لن تسكت، فإذا فقدت الأمور فالسيف في يدك تستطيع أن تقطع به وتصل.

قلت: ما تصورت أنك تحسنين العرض والمناقشة كما أسمع منك الآن، لكن أموراً أخرى لا تزال تجعل الموضوع شبه مستحيل.. قالت: لا مستحيل مع الإرادة والتصميم والعزيمة فما هي هذه الأمور؟.. قلت: أولاً أنني لا أملك ثمن دار أسكنك فيها، ولا توجد دور للإيجار، ولا أستطيع بمرتبي الذي أعيش منه أن أستأجر داراً لو وجدت...

قلت: أنت في غنى عن كل هذه الأمور فأنا كما تعلم أملك داراً مفروشة لا ينقصها شيء ودخلي يكفيني وإن فقدت راتب الوظيفة، والحياة تعاون وتآزر، ولست أريد أن أنفق على نفسي أو عليك بل على العكس من ذلك أريدك أن تنفق أنت، فأنا أريد رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى. أتعلم ماذا أخر المرأة وخرّب عليها حياتها؟ إنه القول بأن المرأة مساوية للرجل مطلقاً دون قيود.. إن المساواة بين الرجل والمرأة قائمة بين كل من الطرفين، وكلاهما سواء في المقاصد الخمسة للشريعة: لكنَّ هناك أموراً اختصت بها المرأة دون الرجل وأموراً اختص بها الرجل دون المرأة، تتبع التركيب الجسدي والنفسي لكل منهما، وتحدد له دوراً خاصاً لا يتساوى فيه مع الجنس الآخر، فالمرأة مهيأة بتركيبها الجسدي وسعة الحوض عندها للحمل واحتواء الطفل وبحنانها مهيأة لإرضاعه وتربيته، والرجل بسعة صدره وقوة ساعديه مهيأ للعمل والكد.. ولو نظرت إلى الطرفين لوجدت أن كلاً منهما يتمم الآخر إن كان في خلقه أو نفسيته أو دوره في المجتمع.. وأنا أريدك رجلاً تنفق علي، لكني أريد لك أن تعلم ما لي هو مالك ولا فرق بيننا وأنك مخول في استعماله دونما إذن مني أو طلب.

قلت: أريد أن أشكرك لهذه الثقة ولكن أمراً لا يزال يعترض بيننا ألا وهو المهر. فأنا كما تعلمين مدرس وأنت تعرفين رواتب المدرسين ولا أملك مُدَّخراً آخر وليس لدي مدخر يمكن أن أقدمه لك..

قالت: أما المهر فهو أمر أساسي بالنسبة لي والرسول عليه الصلاة والسلام قال للخاطب: التمس ولو خاتماً من حديد... وأنا أريد مهراً يتألف من أمرين: حنان وعاطفة وحب وحسن رعاية، تحفظ بها علي كرامتي فلا تهينني، وتحفظ علي ديني فلا تهكلني، ومبلغ رمزي لا يتعدى الدراهم المعدودة، فإن أعطاك الله كان إتمام مهري بالسفر سوية لأداء فريضة الحج. أما الحب والحنان فهو ما افتقدته وأردته منك وأريده طوال حياتنا الزوجية إن كتبها الله لنا وأرجو ألا تفهم من طلبي الحب والحنان أني ألغي الصفحة الثانية الهامة التي أريدها، ألا وهي الوجود الشخصي والرجولة، فأنا بحاجة إلى رجل يفهمني كامرأة، ويحس بي كزوجة، ويحميني كقطعة منه، يأمرني فأطيع، وينهاني بالحق فأرتدع، ويسترضيني بالكلمة الطيبة فأكون له كبده وعينه.. يعلم أني قطعة منه فلا يفرط بي، ولا يستهين بأمري وشأني أما المال الذي أطلبه فأطلبه يسيراً لأن الرسول عليه الصلاة والسلام مدح أخف النساء مؤونة، وأريد أن أكون منهن، وأريده ولو كان يسيراً لأحس أن أمورنا تسير على نهج الإسلام وليست هي عواطف فحسب، بل هي مسؤولية مزدوجة.

وقاطعتها قائلاً: أتعلمين يا آنسة سعاد لو أن كل النساء فهمن ما تفهمين ووعين ما تدركين لما اختلف رجل وزوجته ولخلت المحاكم الشرعية من المتخاصمين، ولما افترق رجل عن زوجته وأولاده. وإن حصل نصيب بيننا فأرجو الله أن يجعل ما تقولين حقيقة وأن يعيننا على التطبيق، لكني أريد أن أقول بصراحة؛ إن الأمر الذي تطلبينه مني

ليس سهلاً عَلَيَّ، ولو كنت عزباً لهان الأمر، ولكني متزوج كما ذكرت ومثل حالي لا يخفى عليك، ويحتاج إلى حسن دراسة وحسن تدبير. وأني لأرجو منك أن تمنحينني فرصة مدة أسبوع، لا نتكلم فيها في هذا الموضوع فإن تم الموضوع تم بهدوء، وإن تعذر، لم يكن فيه ما يسيء لأي منا، ثم لا يعلم به أحد كائناً من كان وكأننا ما تحدثنا فيه قط.

قالت: أنا أعلم أن الأمر الذي أطلبه ليس ذهاباً في نزهة ولا دعوة إلى طعام. إنه أمر حاسم في حياتنا لذلك من حقك أن تفكر فلا تقرر إلا بعد ترو وتأن وتدبر واسأل الله أن يلهم كلينا الصواب وأن يوفقنا للخير.

وهبت واقفة وألقت تحية الانصراف وأردت أن أصحبها ثم توقفت وقالت: فلا يحسن أن يرانا أحد سائرين معاً، ووقفت ومضى قلبي في إثرها.

مر أسبوع لا أعده من حياتي كنت ألقاها في المدرسة وكان حديثاً لم يكن بيننا، لكن عواطفي وأفكاري ونفسي كانت في اضطراب لم أكن مستقراً على رأي، فكل ما عَرَضَتْهُ طيب جيد ومُغْرٍ كأنه أمر مثالي أو حلم يدفع بالمرء للقبول والإقدام، ولكن من يستطيع أن يتجاهل المجتمع والزوجة والأولاد؟. كانت المشكلة الأهم عندي هي أنني أريد أن أعلم زوجتي وأولادي وأن أخفي عنهم شيئاً إلا شخصية زوجتي الثانية، لكنني كلما هممت بفتح الموضوع خانتني شجاعتي وماتت الكلمات على شفتي وركبتني رجفة وكأنني مصاب بمرض الملاريا، فأكف وأنسحب حتى لا ينتبه أحد لحالي... وأخرج من البيت

أحاول أن أفكر في طريقة أحدث أهلي بها.. لقد علّقتُ أمر موافقتي على ما سأجد من رد فعل عائلتي، وهو قرار خطأ في نظري، لكنني لم أكن أستطيع أن أغامر بمستقبلي وزوجتي وأولادي..

كان الوقت يمضي وكان لا بد من أن أجزم أمري وخرجت يوماً من البيت ورحت أسير وأنا أفكر في طريقة أو سبيل أصل بها إلى ما أريد وأستغرقني التفكير فلم أنتبه أين أضع قدمي، فقد وطئت طبقة من الطين فانزلقت وكدت أهوي إلى الأرض فاتخذت الاتجاه المعاكس فكُسِر كاحلي الأيمن وكدت أقع على جنبي الأيسر، فاتخذت الوضع المعاكس فكُسِر كاحلي الأيسر، والتوت ساقي تحتي، وسمعت صوت عظامي وهي تتكسر وسقطت على الأرض.

ونقلت إلى المشفى وأجريت لي عملية معقدة في رجلي ونقلت إلى البيت، وكان من مضاعفات العملية أن سدت خثرة خرجت من نقا العظم وريداً برجلي فتورمت، وهاجرت خثرة إلى رئتي فأصبت بالتهاب الرئة، وساءت حالتي، ومنع الأطباء تحريكي خشية انتقال الخثرة إلى القلب أو الدماغ، وأصبحت تحت العناية المشددة.. وأمضيت في البيت ستة أشهر حتى تعافيت.

كان الزوار كثيرين، وكان الزملاء في المدرسة يزورونني باستمرار، وكل مرة كانوا يحضرون كنت آمل أن تكون الزميلة بينهم ويخيب ظني، ولم أجرؤ أن أسأل عنها، حتى كان يوم قال أحد الزملاء: إن الأستاذة

سعاد تهديك تحياتها وتتمنى لك الشفاء وتسألك عن دفتر كانت أعطتك إياه لتنظر فيه.... وقلت أرجو أن تبلغها تحياتي وشكري وأما الدفتر فإن ظروفي لا تسمح لي بالنظر فيه.

جاء العام الدراسي الجديد وتحسنت حالي وخرجت نحو المدرسة أستعين بعصا أتوكأ عليها. ودخلت غرفة المدرسين مسلماً مستطلعاً وكلي لهفة أن أرى الأستاذة سعاد ولكن خاب ظني... جلست إلى جانب أحد الزملاء أسأله عن المدرسين وأخبارهم وعلمت أنها انتقلت في نهاية العام الدراسي.. ولم أسأل إلى أين؟.

واليوم وقد مضى عشرون عاماً على لقائنا أفكر أحياناً بما جرى وأحس بالحنين إلى تلك الأيام وأشعر بالندم لأنني لم أوافق مباشرة.. ربما لو قبلت لكان إلى جانبي اليوم من يمنحني الحنان والعطف، ولرأيت إلى جانبي ابناً أو أولاداً يهمهم أمري.. ولكن إرادة الله قضت أن تكسر رجلي وأبقى في بيتي وتبقى لي زوجة واحدة.

obeikandl.com

المحتوى

1- الساق الخشبية. 5

2- اليقظة. 35

3- رجع الحنين. 57

4- حفنة من تراب. 75

5- ألحان الصمت. 95

obeikandl.com